مغامر عُماني في أدغال إفريقيا

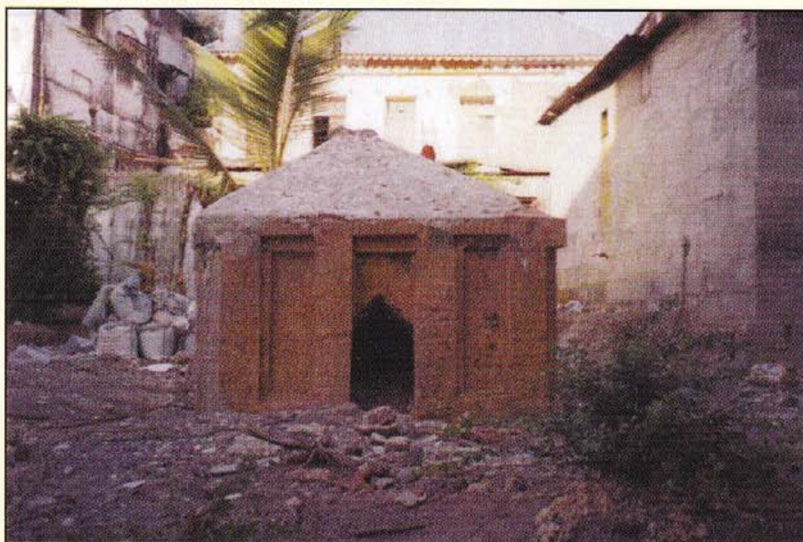
حياة حمد بن محمد بن جمعة المرجبي

(١٨٤٠ ـ ١٩٠٥)

المعروف بتيبو تيب

ترجمة

د. محمد المحروقي



سيرة ذاتية

منشورات الجمل

مغامر عُماني في أدغال إفريقيا

مغامر عُماني في أدغال إفريقيا

حياة حمد بن محمد بن جمعة المرجبي

(١٨٤٠ ـ ١٩٠٥)

المعروف بتيبو تيب

سيرة ذاتية

ترجمة

د محمد المحروقي

منشورات الجمل

الدكتور محمد المحروقي من مواليد سلطنة عمان عام ١٩٦٩. يعمل أستاذاً مساعداً بقسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة السلطان قابوس. أنجز أطروحة الدكتوراة سنة ٢٠٠٤، في جامعة لندن (مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية SOAS)، حول الصورة الشعرية عند ابن المعتز مع التركيز على التشبيه والاستعارة. يولي المترجم اهتماماً خاصاً بالجوانب الثقافية والأدبية للوجود العماني في شرق أفريقيا، وله كتاب منشور عن أحد أهم الشعراء العمانيين في المهجر الأفريقي وهو أبو مسلم ناصر بن سالم البهلاني (١٩٢٠) عنوانه **الشعر العماني الحديث: أبو مسلم البهلاني رائداً** (المركز الثقافي العربي: بيروت، ٢٠٠٠).

مغامر عُماني في أدغال إفريقيا، سيرة ذاتية، ترجمة: **د. محمد المحروقي**

الطبعة الثانية ٢٠٠٦

Postfach 210149. 50527 Köln. Germany

Tel: 0221 736982. Fax: 0221 7326763

E-Mail: KAlmaaly@aol.com

إهـــداء

إلى الناصر،

الحالم بواقعية مدهشة

شكر وعرفان

يسعد المترجم بتقديم الشكر الجزيل لكل من أسهم في إخراج هذه السيرة ، وستطول القائمة ـ بلا شك ـ لو أنني أشرت إليهم جميعاً ولكنني أخصُّ بالذكر السيد محمد البوسعيدي والأستاذين سيف الرحبي وسالم المحروقي الذين لم يتأخروا أبداً في تقديم الدعم المعنوي للمترجم. أما الأستاذ يحيى عمر ود. فاروق توبان من قسم اللغة السواحلية بمدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية (SOAS)، جامعة لندن فقد قدما للمترجم معلومات شائقة عن الحياة الاجتماعية والثقافية في زنجبار في مطلع القرن التاسع عشر، ساعدت هذه المعلومات المترجم في تمثُّل السياق الذي كُتبت في إطاره هذه السيرة. لم يكن يحيى يمل من الحديث عن الهوية السواحلية التي تواجه حملة شرسة لمحوها، وهو يشبِّه حالة الأمة السواحلية بالسفينة التي تغرق في المحيط وسط سمع وبصر العالم ولا أحد يحرِّك ساكناً. وحديث فاروق عن جده تاريا توبان الصديق والوكيل التجاري لتيبو تيب حديث لا ينسى. وأخيراً، وليس آخراً، أ. د. إبراهيم نور البكري الذي كانت لنا معه جلسات مطولة لمناقشة أصول بعض الكلمات السواحلية الواردة في هذه السيرة.

مقدمة الطبعة الثانية

من هنا، من خاصرة الساحل العماني أبحرت سفن الأجداد تمخر عباب المحيط الهندي في رحلة ملآ بالآمال والأحلام بمستقبل مشرق. كانت الوجهة غالباً زنجبار أو ممباسا أو غيرهما من مدن شرق أفريقيا، وأحياناً إلى جزر بالهند للتجارة أو جدة بالحجاز لأداء الشعيرة المقدسة. من خاصرة الساحل العماني ولاية محوت وبشكل أدق من فرضة شنّة أكتب هذه المقدمة الثانية لسيرة المغامر العماني تيبو تيب حمد بن محمد المرجبي. جئت إلى هذه الولاية الساحلية الجميلة البكر لأنعم ببعض الهدوء والوقت أراجع خلالهما مسوّدة الكتاب وأكتب هذه المقدمة.

صدرت الطبعة الأولى لهذه السيرة في فبراير ٢٠٠٥م ولقت رواجاً كبيراً هنا في عمان مما جعل النسخ تنفد في فترة قياسية ـ نوعاً ما ـ لا تزيد علي الشهرين. أقبل عليها الجميع مثقفون وعامة بالدرجة نفسها، وبذات الاحتفاء أقبل عليها الكبار والصغار لما بها من مادة غرائبية شائقة. عرفت أن كبار السن وجدوا فيها الكثير من تجاربهم الحياتية فترتي الصبا والشباب وأيقظت لديهم الحنين

لذكرى هجرتهم أنفسهم. ووجد الصغار فيها مادة مكتوبة لقصص وحكايات طالما سمعوها من أجدادهم وجداتهم عن أيام أفريقيا. وربما انجذبوا إليها لميلهم الفطري إلى قصص المغامرة وأخبار المغامرين. لقد أقبلوا على الكتاب إقبالاً يكشف عن تعطش فعلي لهذا النوع من الكتابة. ويبدو أنها الذات الجمعية تتأمل ماضياً عايشته حتى النخاع بتقلباته المختلفة بين حلاوة الأيام ومسالمتها وبين قسوتها وخشونتها. إنها رحلة ذهنية لمكان مقيم في الذاكرة ومرتبط أشد ما يكون الارتباط بذكريات أثيرة وأليمة في الوقت نفسه بعد ان اضطروا للانفصال عن هذا المكان بشكل قاسٍ جداً، مدفوعين بتمرد محلي زرعته قوى استعمارية غربية هدفت إلى محو الوجود العربي الإسلامي في شرق أفريقيا خاصة.

تصدر هذه الطبعة الثانية بدعم من وزارة التراث والثقافة وبتوجيه مباشر من صاحب السمو السيد هيثم بن طارق بن تيمور آل سعيد، فله الشكر الموصول والثناء الجزيل. وقد اغتنمت فرصة إعادة الطبع لأستفيد من ملحوظات كنت قد وجدتها من الأصدقاء بعد صدور الطبعة الأولى وإضافة مقالة مهمة كنت قد أشرت إليها في الطبعة السابقة، وهي للشيخ الصحافي ناصر بن سليمان اللمكي. وقد نشرت في مجلة الهلال عام ١٩٠٦ ـ أي بعد عام واحد من وفاة تيبو تيب فقط ـ في باب ثابت بالمجلة عنوانه أشهر الحوادث وأعظم الرجال، وعنوان المقالة الجانبي حميد بن محمد المرجبي فاتح الكونغو. ألحقتها بالكتاب لصلتها القوية بمادته فهي سيرة غيرية

يمكن أن يستفيد منها القارئ العام والباحث المتخصص في الموازنة بين الصورة التي يقدمها تيبو تيب عن نفسه والصورة التي انطبعت في أذهان بعض معاصريه. ويقدِّم اللمكي صورة مجملة لأعمال تيبو تيب في عالمي التجارة والسياسة تساعد القارئ على لملمة التفاصيل الكثيرة في السيرة الذاتية. وتأتي أهمية المادة بما تكشفه من اسهامات المثقف العماني في الصحافة العربية منذ فترة مبكرة جداً.

أما الترجمة العربية نفسها فقد راجعتها ولم أغيِّر إلا في النادر بعض الكلمات إذ وجدت في الترجمة صياغة عربية جيدة تتجاوز عثرات النصين السواحلي والإنجليزي في عدم اتصال الكثير من الجمل بسبب كثرة الأسماء واختلاط الضمائر، بالإضافة إلى تداخل مستويات السرد وتشابكها. قمت بذلك منتصراً لأرباب الأساليب العربية الناصعة ومخالفاً لبعض اتجاهات صنعة الترجمة. فليس من وكدي أن يرى القارئ للترجمة روح النص السواحلي منعكسةً على الصياغة العربية، فتلك الروح سيجدها بلا شك في مستوى أعمق من مستوى الصياغة هو مستوى الأفكار والمادة، فروح النص الأصل مبثوثة في كل زاوية ومنحنى لهذه السيرة.

وأخيراً أشير أن هذه هي الخطوة الأولى في طريق طويل يجب أن تتعاقب فيه الخطوات، وقد تأخرت، أعني به طريق معرفة تاريخنا عامة وفي شرق أفريقيا خاصة عبر مصادر متعددة اللغات ومن بينها وربما من أهمها اللغات السواحلية والبرتغالية والإنجليزية. ولعلي أُلفت الانتباه هنا إلى أثرين أرى أنه من المهم المسارعة إلى

نقلهما إلى العربية وهما مذكرات وزير الخارجية في حكومة زنجبار علي بن محسن البرواني[1] وسيرة ذاتية كتبها وزير آخر في الحكومة ذاتها وهو مولد حاج[2]. وهما يصوران الأيام الأخيرة للحكومة العربية العمانية في زنجبار وما تلا سقوطها من فوضى واضطراب. وبترجمات مكثَّفة كتلك سيتسنى للمثقف والأكاديمي أن يحققا معرفة جيدة بتاريخ لا تنقصه العظمة ولا الكبرياء.

محمد المحروقي

محوت، شنّه

٢/٩/٢٠٠٥م

---

(١) Al - Barwani, Ali Muhsin (1997) Conflicts and Harmony in Zanzibar (Memoirs).

(٢) Haj, Maulid (2004) A Jail Tale: the autobiography of an Omani in 1960's Tanzania (Al Roya Publishing: Muscat).

مقدمة الطبعة الأولى[1]

يمثل عام ٢٠٠٥ مرور مائة سنة على وفاة تيبو تيب الذي وقع في عام ١٩٠٥. وننشر هذه السيرة احتفاءً بالذكرى المئوية لوفاة صاحبها.

أسطورة تيبو تيب:

حقق «تيبو تيب» شهرة تقترب من الأسطورة التي سارت وسرت خارقة حدود القارات واللغات والثقافات. توفرت لهذه الشخصية الأسطورية عوامل معينة صنعت رواجها وانتشارها. ولعل أهم هذه العوامل هو العامل التاريخي، فقد جاء حمد بن محمد بن جمعة بن رجب المرجبي، وهذا هو الاسم الحقيقي لتلك الشخصية، في عصر الكشوفات الجغرافية. وكما هو معروف توجهت العقول في تلك الفترة إلى محاولة فهم جغرافية العالم وتاريخه. وكان من بين أبرز الأسئلة التي طرحت نفسها بقوة هو التساؤل عن مصادر نهر النيل وعن كنه القارة السمراء. ذلك النهر الذي قامت عليه إحدى أعظم الحضارات البشرية وهي الحضارة الفرعونية كما يشير إلى

(١) أجرينا بعض التعديلات الطفيفة على هذه المقدمة.

ذلك أبو التاريخ هيرودوتس الذي يقول: «لا يستطيع أحد أن يعطي الخبر اليقين عن مصادر نهر النيل، إنه يأتي من هناك»[١]. وظلت ال(هناك) لغزاً محيراً كما بقيت المعرفة الكاملة لذلك النهر أمراً مفقوداً يثير التساؤلات العديدة لدى الباحثين والمغامرين الذين لا يقفون عند حد. وقد أسهم تيبو تيب بشكل فعّال في تذليل الطريق الموصلة للإجابة على ذلك التساؤل فقام بإرشاد المستكشفين الغربيين من أمثال سبيك (Speke) ولفنجستون (Livingstone) وكاميرون (Cameron) وويسمان (Wissman) وستانلي (Stanley).

وقد توالت الكشوفات الجغرافية في القرن التاسع عشر، ففي سنة ١٨٥٩ ـ وكما يشير المغيري ـ اكتشف برتون (Berton) وسبيك بحيرة تانجانيقا وفي السنة نفسها انفرد الثاني باكتشاف بحيرة فكتوريا نيانزا، وفي سنة ١٨٨٩ اكتشف ستانلي بحيرة ألبرت نيانزا وألبرت ادورد. وقبل ذلك توصّل الاسكتلندي منجوبارك (Mango Park) إلى منابع السنغال سنة (١٨٠٥)[٢].

ويشير رزق إلى أن تلك الحركة الاستكشافية النشطة ما كان لها أن تتم لولا جهود الجنود المجهولين من العرب الذين يمثل تيبو تيب واسطة العقد بينهم[٣] وتحت حمايته تمكّن لفنجستون وستانلي

(١) Moorhead. A (1960) The White Nile (Penguin Books in Association with Hamish Hamilton: New York).

(٢) انظر المغيري، سعيد بن علي (١٩٧٩) جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار. (مطبعة عيسى البابي الحلبي: القاهرة)، ص ١٤.

(٣) رزق، يواقيم رزق (١٩٧٥)، حميد بن محمد المرجبي (تيبو تيب)، والوجود العربي في الكونغو (رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، مركز البحوث والدراسات الأفريقية)، ص٨٨.

من إكمال مهمتهما الشاقة والوصول إلى الطرف الشمالي لبحيرة تانجانيقا[١].

ومن العوامل التي شحذت بريق هذه الأسطورة هي المؤهلات القيادية أو ما يسمّى بالكاريزما في شخصية تيبو تيب. فقد برزت سمات القيادة لديه منذ بداية حياته العملية التي بدأت وهو لا يزال صبياً لم يجاوز الثانية عشرة. ومن ذلك أنه عندما وجد أباه بعد افتراق طويل بينهما، حيث أن الوالد ترك ولده في زنجبار وتوجه إلى البر الإفريقي في التجارة، أراد الوالد أن يرسل الولد في أول مهمة تجارية في أدغال أفريقيا الشرسة. وأن تكون البضاعة تحت إمرة أحد التجار الخبراء من ساحل مريما. فما كان من الولد تيبو تيب إلا أن رفض ذلك بشدة مفضّلاً العودة من حيث أتى من زنجبار من أن يخرج في تجارة أبيه وغيره مسؤول عنها ويصبح هو في وضع التابع[٢]. وفي ذلك ما يدل على نزعة القيادة عنده، وإلى روحه المغامرة.

وفي فترة لاحقة ترسخ نفوذ تيبو تيب في البر الأفريقي، وبدأ بالقضاء على السلاطين الزنوج أو التحكم المطلق بهم عزلاً وتثبيتاً وذلك بغرض توطيد تجارته بالسيطرة المطلقة على مصادر العاج، خاصةً، وتأمين طرق تلك التجارة. والأمثلة هنا أكثر من أن تحصى وهي مبثوثة في ثنايا هذه السيرة التي هي في أغلبها حديث صريح عن ذلك.

---

(١) المصدر نفسه، ص ٩٣.
(٢) أنظر الفقرة (٣) من هذه السيرة.

وكمثال على روح المغامرة والتحدي اللتين يتمتع بها تيبو تيب يمكن أن نتعرض للصراع العنيف الذي دار بينه وبين زعيم زنجي عُرف ببطشه وغدره وهو السامو[1]. فقد نصحه مَنْ معه مِنَ العارفين بالمنطقة بعدم الذهاب إلى السامو فشخصيته لا تؤتمن، وهو يخدع التجار ببريق العاج ثم ينقض عليهم، وقد قتل الكثير من العرب والزنوج بهذه الطريقة. ولم يستمع تيبو تيب إلى ما قيل له. وفي طريقه وجد أحد المسنين العمانيين واسمه عامر بن سعيد الشقصي الذي أكد له ذلك، وأنه نفسه تعرض للمصير ذاته منذ أعوام وقد قُتل من معه من العمانيين، وما نجا منهم إلاّ من كان سعيد الحظ وفرّ ملتجئاً برؤساء المناطق المجاورة. ويستمر تيبو تيب في طريقه ويدخل في صراع مع السامو يسقط فيه العديد من المحاربين من الطرفين، وتحاك له المكيدة تلو المكيدة بطريقة مثيرة جداً وقريبة من الخرافة مما توجد تفاصيله في هذه السيرة. وينتهي الأمر بالقضاء المبرم على السامو وذيوع خبر انتصار تيبو تيب عليه في مجاهل القارة الأفريقية، فيضيف ذلك أهمية كبيرة له، وتنحني له كثير من الرؤوس، وتترسخ حوله أسطورة الزعيم الذي لا يقهره شيء.

وروح التحدي والبطش هذه هي التي جعلت الزنوج يطلقون على المرجبي عدة ألقاب وأولها هو كينجوجوا (Kingugwa) ومعناه الضبع الأرقش[2] وتيبو تيب (Tippu Tip)، وهو محاكاة صوتية

(١) أنظر الفقرات (١٢ ـ ٣٤).
(٢) فقرة (١٤).

لصوت إطلاق البندقية أو لرَّقَّة في عينه[1]. كما لقب بلقب ثالث وهو مكانجوانزارا (Mkangwanzara) أي الذي لا يرهب أحداً، ربما يخاف المجاعة ولكن بالتأكيد لا يخشى الحرب[2].

أما الأوروبيون ـ وهم المستفيد الأول من تيبو تيب في التعرّف على مجاهل أفريقيا ودراستها دراسة علمية أولاً، ثم في تثبيت وجودهم السياسي ثانياً ـ فقد كانوا مأسورين بشخصيته وقيادته. فقد كان مثلاً ممتازاً للنبيل العربي الذي يظهر رقياً مميزاً في حديثه ومظهره. ومن ذلك الوصف الذي أثبته ستانلي إذ يقول عنه:

«ملابسه ناصعة البياض وعمامته جديدة وحول وسطه حزام مرصع وفيه خنجر من فضة، ومظهره العام دل على أنه السيد العربي الذي يعيش في رغد من العيش»[3].

وقال عنه وايتلي، أحد أبرز المهتمين باللغة السواحلية، في مقدمته المشار إليها للترجمة الإنجليزية لهذه السيرة:

«كان تيبو تيب رجلاً مشهوراً وله دور بارز في توسيع التجارة العربية في تانجانيقا والكونجو الأمر الذي يمنحه أهمية تاريخية. كما تمثل سيرته أهم سيرة ذاتية عرفت في اللغة السواحلية».

وفي الفترة نفسها التي توطد فيها نفوذ تيبو تيب في داخل القارة الأفريقية انتقل الاهتمام الأوروبي بهذه القارة إلى مرحلة جديدة.

---

(١) فقرة (٣٠).

(٢) ينظر برود Brode. H (2000) Tippu Tip: The Story of His Caeer in Zanzibar. (The Gallery Publications: Zanzibar), p.v.

(٣) رزق، مصدر سابق، ص ٩٨.

انتقل من مرحلة المعاهدات ذات الصبغة التجارية والتي بدأت في فترة حكم السيد سعيد بن سلطان (١٨٠٦ ـ ١٨٥٦) إلى أطماع سياسية للسيطرة المباشرة على الأرضِ والبشر[١]. وقد تزيّت هذه الأطماع السياسية بمسوح يهدف ظاهرها إلى بث المدنية وسط الزنوج المتوحشين وإلى إشاعة الحرية والقضاء على تجارة الرقيق، أما باطنها وحقيقة أمرها فهي تهدف إلى استلاب الأرض والسيطرة على مقدّرات هذه القارة من المعادن في باطنها ومختلف الخيرات من زراعة وسياحة وغير ذلك من على ظهرها.

فبعد التقدم الصناعي الكبير في أوروبا كان البحث على أشده عن أراض جديدة توفر المواد الخام التي تحتاجها آلة الإنتاج الضخمة، وتفتح في الوقت ذاته أسواقاً جديدة لتلك المنتجات الصناعية. بالإضافة إلى ذلك تزايد عدد السكان تزايداً مذهلاً نتيجة للتطور المعاشي والرعاية الصحية، وتزايد معه البحث عن أراضٍ بكر تستوعب هذا الكم المتزايد من البشر وتلك الطموحات الكبيرة في الكسب الوفير والسريع. ولعل ما ذكر هو من أهم الأسباب التي أدت إلى توسع الدول الأوروبية وامتداد نفوذها وراء القارة الأوروبية ليصبح بعضها إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس، إشارة إلى اتساع رقعتها.

إنه الامتداد ذاته الذي ولّد في فترة سابقة دول العالم الجديد

---

(١) بدأ الصراع العربي ـ الأوروبي على القارة السمراء منذ فترة مبكرة تعود إلى سنة ١٤٩٤م الذي ظهر فيه فاسكو دي جاما في شرق أفريقيا، ينظر المغيري ص ٩٨.

المتمثلة في أميركا وأستراليا. أصبحت أفريقيا الآن محط الأنظار والأطماع. وتزايد التمثيل التجاري والرسمي للدول الأوروبية في زنجبار. ويشير المؤرخ العماني المغيري الذي عاصر تلك الفترة إلى مؤتمر بروكسل سنة (١٨٧٦) الذي اجتمعت فيه الأمم الأوروبية بقصد التباحث في نتائج الكشوفات العلمية وفي الطرق الناجعة لمساعدة الأمم الأفريقية، وإنقاذها من «عبادة الشجر والحجر، ومنعها من أكل البشر» كما يعبر عنه المغيري في صياغة تختزل المفارقة بين المخفي والمعلن[١]. غير أن هذه الأهداف النبيلة ما لبثت أن تحولت إلى أطماع سياسية مكشوفة لاحتلال الأرض والسيطرة على مقدّراتها. وجاءت نتائج هذا المؤتمر مؤكدة للهدف الثاني فأسست الجمعية الأفريقية الدولية التي تهدف إلى تقسيم ما يسميه المغيري ب«الغنيمة الباردة» بين بلجيكا وبريطانيا وفرنسا ومنع الشقاق بينهم عليها[٢].

في السياق نفسه يأتي استغلال الأوروبيين لشخصية تيبو تيب ومعرفته بالبر الأفريقي وزعامته له. ونجد أحد المستكشفين الأوروبيين، والذين قدم لهم تيبو تيب خدمات جليلة في كشف مجاهل أفريقيا، وهو ستانلي يعود ثانية إلى زنجبار ويطلب المساعدة من تيبو تيب لتأسيس الوجود البلجيكي في قلب القارة الأفريقية. فقد جعله ملك البلجيك ليوبولد الثاني (Leopold II) مهندساً لما سيسمّى فيما بعد «دولة الكونغو الحرة» والتابعة للملك البلجيكي.

(١) المغيري، مصدر سابق، ص ١٩٣.
(٢) نفسه، ص ١٩٤.

ويقبل تيبو تيب هذا الدور، الذي سيبقى وصمة عار تلاحقه، ليس جهلاً منه بالنتائج وإنما إدراكاً لمدى التحكم الذي وصل إليه الأوروبيون مما لا يترك مجالاً لرأي آخر. فالطرق جميعها مسدودة وقد يُقبل منه اجتهاده وقبوله بالأمر الواقع.

وفي هذه السيرة يذكر تيبو تيب التردد الذي أبداه عندما عرض عليه ستانلي الأمر أول مرة بحضرة القنصل البريطاني للضغط عليه[١]. وكيف دُفع لتوقيع اتفاق لم ينصفه أي بند من بنوده. فحتى الراتب الشهري الذي قرروه له مقابل أن يكون والياً للبلجيك هو ثلاثون جنيهاً وهو مبلغ زهيد جداً لتاجر وزعيم في حجم تيبو تيب. وإن دل ذلك على شيء فإنه يدل على مدى التحكم الأوروبي على العرب آنذاك وغطرسته في استغلال نفوذه.

وينقل تيبو تيب هذا الأمر إلى سلطانه السيد برغش بن سعيد الذي كان أكثر إدراكاً منه لأبعاد الأطماع الأوروبية، والذي كان قد تحدث إليه في ما يشبه الخطبة المؤثرة عن حجم الكارثة مؤكداً أن سابقيه من السلاطين استراحوا بموتهم إذ لم يسمعوا بهذا الأمر. ثم نصحه بقبول العرض ولو أعطوه عشرة جنيهات فقط.

وقد جدَّ تيبو تيب في تأسيس وتوطيد النفوذ البلجيكي فيما يعرف بمنطقة الكونغو، من خلال تأسيس مدن متفرقة ورفع العلم البلجيكي عليها، ومن خلال استمالة الزعماء العرب والزنوج لهذه الدولة، وفرض العشور ـ حسب تيبو تيب ـ أو الضرائب على تجارة

---

(١) ينظر بشكل خاص الفقرات (١٦٨ ـ ١٦٩).

العاج[1]. وقد نجح في هذه المهمة بشكل مذهل جعلت الاوروبيين يكتبون عنه ويهتمون بسيرته عرفاناً بما قدم لهم. وهو أمر آخر كفل له شهرة بعد موته[2].

وتقدم هذه السيرة شخصية طموحة حفرت طريقها بأظافرها وبدأت من مرحلة الصفر وعاشت حياة مليئة بالأحداث ومليئة بتحدي المجهول. هي أسطورة لإنسان عادي من أسرة ضعيفة غاب معيلها وتكالبت عليها الظروف. غير أن تيبو تيب يتحدى كل ذلك وينجح بشكل كبير لدرجة تجعله قادراً على التعامل وأحياناً التفاوض مع حكومات عربية .وغربية التي تقدر حجم النفوذ الذي يتمتع به هذا الرجل في داخل البر الأفريقي.

التعريف بتيبو تيب: كتابة المستحيل:

هو حمد بن محمد بن جمعة بن رجب بن محمد بن سعيد المرجبي واحد من أشهر التجار العُمانيين في شرق أفريقيا في مطلع القرن التاسع عشر. ويرد اسمه الأول في المصادر العربية[3] «حميد» بينما يرد في المصادر الأجنبية «حمد»[4]. والمرجح لدينا هو «حمد»، وذلك بالاستناد إلى رسالة كتبها بنفسه وذكر الاسم

---

(١) تنظر الفقرة (١٦٧).

(٢) تبرز قائمة المصادر والمراجع ـ المثبتة في آخر هذا الكتاب ـ بعضاً من ذلك الاهتمام.

(٣) ينظر اللمكي، ناصر بن سليمان أشهر الحوادث وأعظم الرجال: حميد بن محمد المرجبي فاتح الكونغو (مجلة الهلال، يوليه ١٩٠٦)، ص ٥٧١ ـ ٥٨٠.

(٤) ينظر برود، مصدر سابق ووايتلي صاحب الترجمة الإنكليزية التي لدينا، ويتكرر الاسم في هذين المصدرين في مواضع كثيرة.

«حمد»[1]. كذلك نجد برود ووايتلي يرسمانه هكذا (Hamed)، فالحاء مفتوحة و«حميد» حاؤه مضمومة. ولا يمكن أن يعتبر ذلك عدم دقة من المستفرقين (قياساً على المستشرقين) الألماني والإنجليزي فالأول كان معاصراً له وبينهما معرفة وثيقة وقد ألف كتاباً في إنصافه والرد على المغرضين عليه من أمثال ستانلي. أما الثاني فهو عالم لغوي وواضع لقاموس سواحلي ـ إنجليزي ومن الصعوبة أن يفوته أمر كهذا. ولعله من المهم هنا الإشارة إلى أنه من أساسيات التخصص الأكاديمي في اللغة السواحلية عند أوائل المستفرقين الأوروبيين هو إجادة اللغة العربية.

واستعمال البعض لإسم «حميد» يمكن أن يفهم في السياق الذي أشرنا إليه آنفاً، وأن هذه الصيغة هي مصغّر لـ«حمد»، وقد تكون ألصقت بالمترجَم له في صغره وشاعت بين سكان زنجبار ومن بينهم اللمكي. ثم أنه لما كبر صار يقدم نفسه بالصيغة المكبّرة وهي «حمد» وهكذا عرفه المستفرقون ونزلاء زنجبار. والواقع أنه في عُمان كانت تشيع ثلاثة أسماء كانت تنتمي إلى جذر لغوي واحد هو ح م د، وهذه الأسماء هي: حمد ـ حميد ـ حمدان. وقد يستخدم الفرد الواحد اسمين، أحدهما للخطاب الشفوي، حميد أو حمدان والآخر للخطاب الكتابي، وهو حمد.

والأرجح أنه ولد في قرية تسمى كوارارا (Kawarara) في زنجبار عام (١٨٤٠). نشأ بزنجبار وبها تلقى تعليماً دينياً. وكان عليه أن

---

(١) رأينا من الضرورة إيراد هذه الرسالة وإلحاقها بهذه الترجمة. ينظر ص ٢٣.

يتم حفظ القرآن غير أنه لم يفلح في ذلك لدى معلمه الأول. وباءت جهود الأسرة بالفشل عندما نقل إلى معلم ثانٍ لتحقيق ذلك الهدف[1]. ويبدو أن ذكاء الطفل كان من ذلك النوع من الذكاء العملي الميال للحركة وليس من النوع الذي ينسجم مع السكون وعدم الحركة. بدأ في التجارة في فترة مبكرة من حياته لم يتعد فيها الثانية عشرة من عمره. واقترض اثني عشر ريالاً[2] اشترى بها ملحاً سافر به إلى دار السلام وإلى المناطق القريبة[3]. وكما يظهر من سيرته فقد بدأت خطواته الجادة في عالم التجارة عندما جعله والده على رأس قافلة تجارية خاصة به[4]. ثم ما لبثت مهاراته التجارية أن نشطت وأخذ يقوم بتجارته الخاصة مخضعاً الزعماء الزنوج لسطوته، مكوناً جيشاً من الحمالين المسلحين، فقد عرف أن قافلة التجارة لا تسير إلا بحراسة مشددة وقيادة فذة.

تاجَرَ في العاج بشكل أساسي وفي الخرز والشبه ومختلف البضائع. ومن مصادر دخله المهمة هي العقود التي كان بموجبها يوفر العمالة ـ المدفوعة الأجر ـ للشركات الأوروبية المشتغلة بإنشاء البُنى الأساسية في القارة الأفريقية، ويؤمن الحماية للمستكشفين والمنصِّرين الأوروبيين. في هذا السياق، تؤكد المصادر، خاصة الغربية والأفريقية على الدور الكبير الذي لعبه تيبو تيب في تجارة

(١) رزق، مصدر سابق، ص ٣٣.
(٢) في ثنايا الترجمة سيتم بيان العملات المتداول بها.
(٣) اللمكي، سابق، ص ٥٧٣.
(٤) الفقرة (٣).

الرقيق، وهم يستخدمون ذلك للنيل من هذا الرجل ولاتهام العرب عامة في شرق أفريقيا بإساءة معاملة السكان الأصليين. وموضوع تجارة الرقيق ومدى دور كل من العرب والزعماء الأفارقة وكذلك الأوروبيين في هذا الشأن من الموضوعات الدقيقة التي تحتاج إلى عناية كبيرة من قبل الدارسين العرب. وذلك أمر ليس مجاله هذا المقام، ولكننا نسارع إلى الإشارة أنه ومن خلال هذه السيرة، لا نجد أي إشارة تدين تيبو تيب، وهو يذكر صفقاته التجارية التي قام بها ويذكر بالأرقام الفوائد التي جناها غير أنه لا يشير مطلقاً إلى أنه تاجر بالعبيد. ويتساءل أ. د. إبراهيم البكري ـ مستنكراً ـ إذا كان المرجبي قد تاجر بالعبيد فلماذا لا يشير إلى ذلك في هذه السيرة التي حوت الكثير من تفاصيل حياته؟! ولماذا يعطي الحمالين الذين يتعاقد معهم أجوراً مقابل استخدامهم؟![١] وقد أفادته صلاته القوية ببعض القبائل الأفريقية مما ساعد على نجاح تجارته وتقوية نفوذه حتى أن كثيراً من المستكشفين الأوربيين للقارة الأفريقية نعموا بالحماية التي وفرها لهم وأثبتوا ذلك في مراسلاتهم للجمعيات التي ينتمون إليها[٢].

---

(١) (مقابلة، القرم: سلطنة عُمان، ١٤ يوليو ٢٠٠٤م).

(٢) ينظر صغيرون الذي يشير على أن مفوض الملكة البريطانية السير جونستون (Jonston) أبان عن تقديره للدور المميز الذي يقوم به اثنان من كبار التجار العرب وهما الشيخ حمد بن محمد المرجبي والشيخ محمد بن خلفان البرواني في مساعدة الإرساليات الإنكليزية: Soghayroun, (1992) Islam, Christian and the Colonial Administration in East Africa. (Muscat). P. 37.

أصيب في أخريات حياته بمرض الاستسقاء[1] ثم عوفي منه. وتضاءل الأمل في أن يحقق تيبو تيب أمنيتين عزيزتين على نفسه هما السفر إلى أوروبا ومشاهدة المدنية التي تتمتع بها وكذلك زيارة البيت الحرام بمكة المكرمة لأداء فريضة الحج[2]. وينقل لنا اللمكي اللحظات الأخيرة في حياته فيقول:

«... ولكن صحته بقيت ضعيفة فاشتد به الألم حتى كانت الساعة الخامسة من ليلة الأربعاء عاشر من ربيع الأول (١٤ يونيو) قبضه الله إليه. وما شاع الخبر حتى توافدت الجموع إلى منزله وفي مقدمتهم قنصل جنرال أمريكا أوفيس قنصلها [هكذا] وتتابعت الجموع وسار في جنازته أناس كثيرون. وفي الصباح جاء قنصل جنرال الإنكليز وقنصل الألمان وغيرهما من معتمدي الدول والتجار الأجانب وأعيان العرب والهنود والزنوج لتعزية أهله. ونقل البرق خبر وفاته إلى العالم المتمدن فأتت جرائده مملوءة بالكلام عن سيرته»[3].

وقد نعاه القنصل الألماني برود قائلاً:

«توفي تيبو تيب في زنجبار بالملاريا في ١٣ يونيو عام (١٩٠٥). ومات وايزمان (Wissman) في اليوم التالي، أما ستانلي (Stanley) فقد

---

(١) مرض خِلقي في الغالب يزداد فيه السائل المُخيّ الشوكي في بطون الدماغ، فيمددها ويرقّقه. المعجم الوسيط: س ق ي.

(٢) برود، سابق، ص ١٣٢.

(٣) اللمكي، سابق، ص ٥٧٩ ـ ٥٨٠. سيكون من المثير تتبع هذه النقطة، أي ما كتبته الصحافة الأجنبية في رثاء تيبو تيب والتعرّف على الصورة التي ترسمها له.

مات قبلهما بعام واحد. وعليه ففي فترة قصيرة من الزمن طوى الموت ثلاثة من أبرز الرجال العارفين بأسرار القارة المظلمة»[١].

عاش تيبو تيب حياة مليئة بالمغامرة والتحدي والارتحال. وقد عاش انتصارات وهزائم بالمعنى الحرفي والدقيق لهاتين الكلمتين، مخلفاً في كل مكان حلّ به إما أصدقاء يذكرونه فيشكرونه وإما أعداء يتربصون به الدوائر. فقد كان ملء الأسماع والأبصار. ومهما يكن من أمر فإن تيبو تيب يُعتبر بلا شك حلقة من حلقات الوجود العُماني في شرق أفريقيا. والتعرف عليه هو دليل على المعرفة الواعية بذلك الوجود الموغل في القدم ببعديه المضيء والمعتم، دون فرح بالأول ودون مواربة للثاني.

ملحوظات على الترجمة[٢]:

وفيما يتصل بالترجمة فقد كُتبت باللغة السواحلية ثم ترجم هذا النص إلى اللغات[٣]: الألمانية والفرنسية والإنجليزية. غير أن هذا

---

(١) برود، نفسه.

(٢) الترجمة الإنجليزية قام بها وايتلي W. H. Whitely نشر أول مرة في مجلة شرق أفريقيا للجمعية السواحلية بين عامي ١٩٥٨ ـ ٩ ثم أعيد طبعها بشكل مستقل في الأعوام التالية: ١٩٦٦، ٧٠، ٧١، ٧٤. نعتمد هنا على الأخيرة. صدرت الترجمتان الألمانية والفرنسية كالتالي: BONTINICK, F (1974) L'autobiographie di Hamed ben Mohammed el - Murjebi Tippo tip (ca. 1840). Academie voor Overzeese Welenschappen: Brussel.

(٣) HISTOIRE DE RENAULT, F 19 (i7) Un potential arabe en Afrique centrale au XIX siecle.

ISOCIETE FRANCAISE DOUTRE - MER PARIS.

الأصل لم نعثر عليه ووجدنا النسخة التي نُقلت إلى الحرف اللاتيني. ويشير المترجم الإنجليزي في مقدمته لهذه السيرة إلى أن هذا الأصل كان يوجد لدى الشيخ محمد بن ناصر اللمكي حفيد تيبو تيب وساكن زنجبار. وأنه قد طلبه منه سنة ١٩٤٤، غير أن هذا الشيخ أجاب أنه لا يستطيع إظهاره قبل سنة ١٩٥٥. وعندما عاود وايتلي الطلب في السنة المذكورة تأخر اللمكي عن إجابته. ولعل الحفيد كان يراعي الظروف السياسية العصيبة التي كانت تمر بها زنجبار في تلك الفترة أو أنه ضن على المستغربين بهذا الأثر إذ لا يثق في مآربهم. ولعل الأيام تبدي هذه النسخة فتكون شاهداً ملموساً للحظة من لحظات الالتقاء العربي الأفريقي.

ويظهر الأثر العربي بالغاً على مفردات هذه اللغة مما أشرنا إلى بعض منه في ثنايا التعليقات المصاحبة لهذه الترجمة. فالأرقام العربية ـ آنذاك ـ تستخدم كما هي دون تغيير، وفي النص شواهد قرآنية وتعبيرات دينية كثيرة، ومفردات عربية لا يخطئها النظر. والحقيقة أن هذا النص من النصوص النادرة التي تعكس الأثر الكبير للغة العربية على اللغة السواحلية قبل أن تنجح خطط طمس الأثر العربي على تلك البقعة. ولهذا السبب بالتحديد فإن الحاجة تبدو ماسة لدراسة لغوية متخصصة لهذه السيرة تبرز ذلك التأثير.

لا بد أن نشير أنه من الصعوبة أن تفهم هذه السيرة دون تمثل لحالة إنتاجها وهي أن منشئها المرجبي كتبها في فترة متأخرة من عمره، لذا فهو يتحدث من الذاكرة فيسترسل عند بعض النقاط

ويختصر عند نقاط أخرى. وقد يأخذه الاستطراد إلى حكاية جديدة تلهب ذاكرته بما تحويه من مغامرات أو بما حققه من ثروات. وهنا نتذكر أن صاحبنا المرجبي من كبار التجار وهو يكتب هذه السيرة بعد عهد طويل بكثير من أحداثها لذا يقع في مزلقين اثنين:

فقد تدفعه لذة سرد مغامراته إلى المبالغة والتزيد فيما حقق من ثروة أو أفنى من أعداء. وينتقل أحياناً من موضوع إلى موضوع دون رابط واضح ودون مقدمات. ويمكن أن نقدم أرقام القتلى الذين حصدهم في مواجهته للسامو كدليل على أن نوعاً من المبالغة يظهر هنا. ففي المرة الأولى يقتل مائتين منهم في مقابل قتيلين فقط ولا تجعل هذه الهزيمة النكراء السامو يتعظ بل إنه ليعاود الهجوم ليخسر ستمائة من جنوده. وقد يعقل ذلك الفرق الكبير من الضحايا في إطار اختلاف السلاح حيث يواجه المرجبي سلاح السامو التقليدي (السهام والرماح) بسلاح فتّاك وهو البارود ولكننا لا نتصور كيف لم يأبه السامو لفارق السلاح.

أما المثال الذي يمكن أن يقدم للحالة الثانية من حالات مزالق الحكي وهي الاستطراد وتداخل السرد بالتذكر في بعض حكاياته هي قصة الجماجم التي شاهدها (الفقرة رقم ٢٧) جنوده أثناء تتبعهم للسامو. فعندما تحكي إحدى الأسيرات مقتل الباحثين عن العاج في أرض السامو يتدخل المرجبي (يلاحظ أنه هنا يمثل دور السامع للأخبار التي يقدمها بشير بن حبيب) بإبداء ذكرياته أو معرفته لبعض الأماكن التي ترد في الخبر.

والطبيعي جداً أن تعكس ترجمتنا المزالق المشار إليها. وفي مرات معدودة سنتدخل بإضافة جملة أو أقل منها عندما نجد أنه من الصعوبة على القارئ العربي أن يتابع سير الأحداث دون هذه الإضافة وسنضع المضاف بين معقوفتين هكذا [ ].

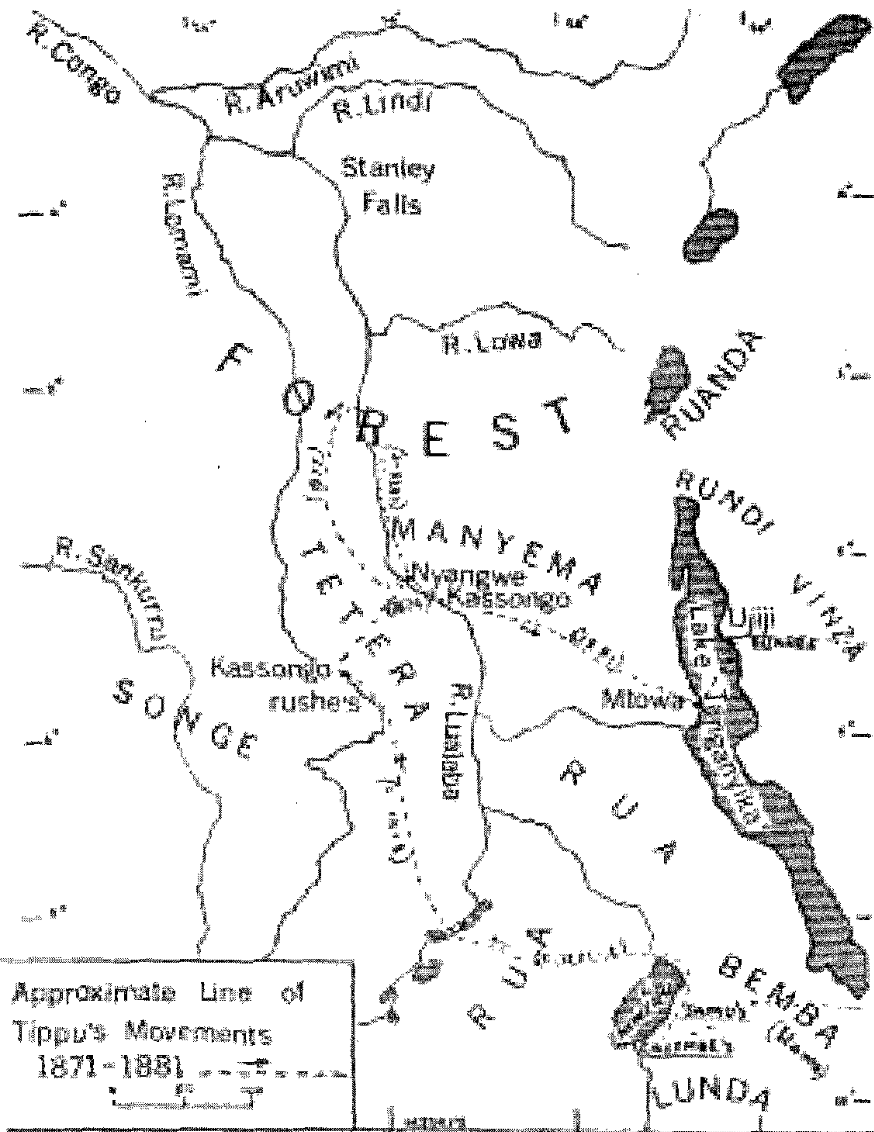
الى جناب المحب الاكرم الافخم الناصح اندرو جمسن الانجليز

المحب الكبير الجليل فى نعمة المولى وانت تكون كذلك بفضل الرب
الكريم المولى الرحيم وقد بلغنا وفاة اخيك صاحبنا جمسن
فى طراف بنجليه واسانا بوفاته كثير غير قليل وجرت دموعنا
بلا تحصيل لانه كان صاحبنا وشفيقنا مثل الاخ الخالص والزيادة
بحشمته وجليته وانيسته ومادامت صحبتك فى قيد
الحيوة نريد ان تكون محلة معى فى الصحبة والموده والشفقه
لانى تحاسبت صاحبك مثله وجمسن مافات مادمت فى قيد
الحيوة ونرجوا منك ان لا تقطع محبتك من التعريف عن حالك
التصنيف وكل حاجة او خدمة او امر الذى تريد منا
فالاشياء منك التعريف تقضى طيبا ورغبا والسلام
الحقير
محب محمد بن محمد المرجبى واذا بلغك كتابى هذا لا تحرمنا من الجواب
فى ٦ رجب سنة ١٣٠٦

رسالة تيبو تيب إلى اندرو جمسن

المصدر:

عن رزق، ١٠٩: Jameson, J.: The Story of Rear Column (lond. 1890)



Sketch map showing Tippu Tip's Main Sphere of Influence.

خارطة توضح مجال سيطرة تيبو تيب في الفترة بين ١٨٧١م - ١٨٨٨١م

Sketch map showing (a) the Main Trip Route Base on Zanzibar 1840-1885 and (b) the rough extent of the authority claimed by Tippu Tip in 1884-5 and by Mirambo at the time of his death in 1884.

خارطة توضح: أ-الخط التجاري الرئيسي المنطلق من زنجبار بين ١٨٤٠م-١٨٨٥م

ب-حدود تقريبية للفنوذ الذي يدعيه تيبو تيب بين ١٨٨٤م-١٨٨٥م

وحدود نفوذ ميرامبو حين وفاته سنة ١٨٨٤م

البدايات الأولى في عالم التجارة (١ ـ ١١)

(١) عندما بلغت الثانية عشرة من عمري أخذت أسافر إلى البلدان القريبة متاجراً في السندروس[1] وملازماً أخي محمد بن مسعود الوردي وعمي بشير بن حبيب وعبد الله بن حبيب الورديين. تاجرت عاماً كاملاً بذلك النوع من الخشب. كنت أحمل بضائع قليلة لصغر سني بينما يحمل أخي وعماي بضائع أكثر. استمرت هذه التجارة سنة واحدة.

(٢) وعندما بلغت الثامنة عشرة كان والدي محمد بن جمعة مسافراً وقتذاك. عزم والدي وعشيرته على السفر إلى أوجانجي (Ugangi)، وبعث إلي بالخبر التالي: «قررت السفر إلى أوجانجي، تعال لنذهب معاً». صاحبته إلى أوجانجي وبعد رجوعي ذهبت إلى

(١) السَنْدَروس: صمغ شجر أو معدن شبيه بالكهرباء، يجلب من نواحي أرمينية. وهو من الأدوية الجليلة. وربما وُضع شيءٌ منه في الحبر لإصلاحه.
في التحقق من معاني الكلمات السواحلية عدنا إلى جملة من المعاجم والقوانين ترد تفاصيلها في قائمة المصادر والمراجع وقد استغنينا بذلك عن تكرار ذكرها.
بالنسبة لطريقتي في التهميش، فبعداً عن التكرار سأشير إلى المصدر فقط عندما أترجم الهامش عن المترجم الإنجليزي وايتلي وذلك بذكر اسمه دون الصفحة لأن أرقام الفقرات تغني عن ذكر الصفحات، ولن أشير إذا كان الهامش من إضافتي.

زنجبار[1] (Zanzebar) بينما ذهب والدي محمد بن جمعة إلى تابورة[2] (Tabora) بأنيا مويزي (Unyamwazi) وكان ذا كلمة ونفوذ في تابورة حيث كان مقرباً من سلطانها[3] فوندي كيرا (Fundi Kira) إذ صاهره بالزواج من ابنته منذ شبابه، واسمها كاروندي (Karunde) وأمها زوجة السلطان الأولى التي كانت تتمتع بنفوذ يعادل نفوذ السلطان. لذا كان لوالدي نفوذ كبير في تابورة وعندما يجيء إلى الساحل يصطحب زوجته معه، ويأتي بكميات كبيرة من العاج بعضها تخصه وحده ـ منحةً من السلطان ـ والبعض الآخر تخص السلطان جعلها في قبضة والدي ليبيعها له. كان سلطان أنياموزي في ذلك الزمان ذا مال وأتباع كثيرين، ربما لا يماثله سوى سلطان أوغندا (Uganda) وسلطان كراجوي (Karagwe).

(٣) مرةً كنت ذاهباً إلى الوالد في تابورة فأصابني مرض الجدري في الطريق. لذا مكثنا شهرين في أونيانيامبي (Unyanyambe) بتابورة رأى والدي بعدها الذهاب إلى أوجيجي (Ujiji) بتانجانيقا (Tanganyika) ولما وجدنا أن سعر العاج مرتفعاً بعض الشيء عزم جماعتنا العرب ـ الذين كنا بصحبتهم ـ السفر إلى أوروا (Urua) بينما

(١) يرد في الأصل السواحلي إسم زنجبار باسم أخر وهو أنجوجا (Unguja). وهي التسمية الدقيقة للجزيرة التي كانت عاصمة الحكم العماني. ويذكر أن اسم زنجبار في القديم كان يطلق على السواحل الشرق أفريقية كلها حتى جاء الاستعمار الغربي وبدأ يجزئ ويعزل تلك السواحل إلى أن قلص زنجبار في حدود الجزيرة المعروفة فقط.

(٢) تابورة: مركز من مراكز التجارة العربية.

(٣) يستعمل تيبو تيب هنا الكلمة العربية سلطان، وأما وايتلي فيترجمه إلى زعيم، وقد رأينا الاحتفاظ بالأصل لأنه يبرز الأثر العربي على اللغة السواحلية.

فضل والدي العودة إلى تابورة وعهد ببضائعه إلى رجل من مريما (Mrima) يسمى مويني بكار بن مصطفى[1]، وقال لي: «سافر معه وكن بصحبته». في ذلك الوقت كانت البضائع المطلوبة في أروا هي الأساور والخرز، فكان ردي له: «لا أستطيع الذهاب إلى أروا وبضاعتنا في قبضة رجل آخر من ساحل مريما وأنا في وضع التابع له، ولكن من الأفضل أن أعود معك». أجاب أبي: «لم أكن لأعطيه القيادة لو لم تكن شاباً غير مجرب وهو خبير بالمنطقة أجمعها. ولكن إذا كنت تشعر أنك قادر على تحمل المسؤولية فهذا أمر جيد». فأجبته: «جربني، وإذا فشلت فاعهد إلى رجل آخر في الرحلات القادمة». وكان من أبي أن سلمني البضائع وعاد إلى تابورة.

(٤) عبرنا بحيرة تانجنيقا بطوافات[2] أهلية لانعدام القوارب. وقد كنا قرابة عشرين تاجراً عربياً. وصلنا مرونجو (Mrongo) بأروا، ووجدنا التجارة فيها متوسطة ليست جيدة وليست ضعيفة كذلك. اشترينا عاجاً من هناك واخترت القطع الصغيرة لأنها كانت أرخص من القطع الكبيرة لرغبة الناس في الأخيرة، بينما أقبل التجار

(١) مويني (Mwinyi) لقب يشير إلى مكانة الشخص ومعناه السيد والشيخ والشريف، إذا كان من آل البيت.

(٢) من وسائل النقل النهري البدائية التي لا محرك لها. وهي عبارة عن ساق شجرة نزع من وسطه ويدفع بالمجذاف. أنظر الموسوعة العربية العالمية، ج ٢٥، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع (الرياض: ١٩٩٦)، ص ٣٦٥، وهي بالسواحلية (mashua)، وبالإنجليزية (dug - outs)، ولعل التسمية السواحلية عربية الأصول من المصدر العربي المشي.

الآخرون على القطع الكبيرة للحصول على أرباح مضاعفة. وقد عدنا بعد أن أنهينا شراء ما نريد.

(٥) وفي طريق العودة بلغنا خبر وفاة سلطان تابورة فوندي كيرا إذ نحن بمتوا (Mtoa) كما علمنا أن والدي أقام مكان السلطان الراحل ابن أخيه واسمه منيوا سيري (Mnywa Sere). ثار أحد أقارب السلطان السابق ضد منيوا سيري ولكنه لم يوفق في مسعاه للزعامة. وكان من أمر هذا الزعيم الثائر المسمى بمكاسيوا (Mkasiwa) أن تحصن بقريته وبدأ يبني المخازن ويجمع القوة والأتباع.

رأى منيوا سيري أن الحرب لازمة فحاول المواجهة عشرين يوماً تقريباً ولكنه لم يتمكن من دحر أعدائه. عندما أيقن من ضعفه عن الحرب طلب من والدي مساندة العرب وأعطى والدي قروناً كثيرة من العاج بعضها من مخازنه الخاصة وبعضها من مخازن أخرى مجاورة لمخازنه. قبل العرب الهدية وشنّوا هجوماً استغرق شهراً كاملاً حتى زعزعوا قوة مكاسيوا وقتلوا عدداً كبيراً من أتباعه وأسروا مثلهم مما اضطر مكاسيوا إلى الهرب مع من نجا إلى أورياكورو (Uriakuru) وحتى هذا الوقت لم يكن أحدٌ قد سمع بميرابو (Mirambo)[١].

(٦) حافظ منيوا سيري على سلطته وقويت شوكته. وعندما أحس بتمكنه فرض ضريبة على القوافل العربية القادمة من الساحل

---

(١) جملة معترضة تشير إلى أحد الزعماء الأفارقة الذين سيأتي ذكرهم لاحقاً.

تلزم القوافل بتسليمها عيناً من بضائعهم أياً كانت. كان ذلك أثناء الحرب بين السيدين ماجد وبرغش[1] وهرب أكثر أتباع السيد برغش إلى تابورة لاجئين إلى العرب بها. وعلى الرغم من أن السلطان منيوا سيري كان ضعيفاً وفي ضائقة شديدة لم يستطع العرب النيل منه خوفاً من والدي محمد بن جمعة الذي كان يتمتع بنفوذ كبير وله أتباع كثيرون. فأولاد عمه ـ المسافرون آنذاك ـ يزيدون على ثلاثين رجلاً، وكل واحد منهم يتبعه عبيد كثيرون في خدمته. لقد كبح عرب تابورة رغبتهم في الانقضاض على السلطان.

(٧) تزايد طغيان منيوا سيري مع مرور الوقت فقد عذب حتى الموت أم زوجة والدي كاروندي وعذب أخاها أيضاً. فاستشاط والدي محمد بن جمعة غضباً لذلك، وتوجه إلى سليمان بن حمد

---

(١) السيد ماجد بن سعيد بن سلطان البوسعيدي، تولى الحكم حادي ربيع الأول سنة ١٢٧٣ هجرية، الموافق ١٨٥٦ ميلادية. وتوفي في ١٢ رجب سنة ١٢٨٧ هجرية، وعمره ٣٧ عاماً. وكان أبيض اللون، طويل القامة، مليح الشكل، ودفن في القبة التي دفن فيها أبوه السيد سعيد بن سلطان. سار سيرة أبيه في الرعيّة فعاملهم باللين والرأفة واقتصد في إنفاق الحكومة، وحط على الرعية في العشور، فلم يكلفهم شيئاً يستثقلونه. ومضت أيامه بسلامة وسعادة. المغيري، ص ١٩١، بتصرف.

السيد برغش بن سعيد بن سلطان البوسعيدي: تولى الحكم في الثاني عشر من رجب سنة ١٢٨٧ هجرية، وتوفي في الرابع عشر منه سنة ١٣٠٥ هجرية بالباخرة عند رجوعه من عُمان في رحلة استشفاء. ودفن في زنجبار بجوار أبيه وأخويه خالد وماجد. وهو آخر السلاطين بزنجبار هيبة ومعنى، وكان من أفراد الملوك في علو الهمة وقوة الإرادة وحسن السيرة، فقرب العلماء وأولى الفضلاء. وقد رتب أمور سلطنته وغيّر عماله وقادته، ومن خزنته الخازن العام زيرام البانيان مدير الجمارك، والخازن عبيد بن عوض العماري ومن المقربين معه من الهنود تاريا بن توبان الهندي، وهو الذي سافر بصحبته إلى لندن وأوروبا. ومن أعماله الجليلة بناء «بيت العجائب»، وهو من عجائب البناء بأفريقيا الشرقية. المغيري، ص ٢٢٦ ـ ٢٣٤ بتصرف.

وسلطان بن علي وثاني بن عمر وخاطبهم قائلاً: «لقد تجاوز منيوا سيري الحد في طغيانه مع أصهاري ولا بد من محاربته». فأجابوه: «كنا نراقب تزايد طغيانه منذ فترة طويلة ونتجنب إخبارك خوفاً من ردة فعلك، وبما أنك قررت بنفسك محاربته فنحن نساندك، ولننتظر عودة صهرك وولدك ثم نهجم عليه وننصب مكاسيوا سلطاناً بدلاً منه».

(٨) تمت المشاورة بين أولئك الرجال الأربعة، كما صح العزم في قريتنا على إحضار مكاسيوا سراً إلى منطقة قريبة من تابورة. وتم ذلك بجهود سالم بن سيف البحري الملقب بالصبور[١]. أعلن الوالد محمد بن جمعة وسالم بن حمد وثاني بن عمر بياناً في اليوم الثاني عشر من الاستعدادات إلى جميع الموجودين من أقاربهم وكل سكان تابورة الذين يتراوح عددهم بين ثلاثمائة إلى أربعمائة رجل، جاء بعضهم من ساحل مريما فتجمعوا في منزل سلطان بن علي الذي أعد لهم وليمة كبيرة قبل أن يبلغهم البيان المذكور.

(٩) في الوقت ذاته أرسل السلطان عاجاً إلى موسى الهندي مع أحد أصدقائه القدامى ليبيعه له في تابورة ذاتها. وكان من موسى هذا الملقب بموسى مزوري[٢] (Mzuri) أن أخبر الرسول بأن العرب كلهم تجمعوا عند سلطان بن علي بقصد محاربة السلطان وقد أرسلوا سالم بن سيف لإحضار مكاسيوا. هرع الرسول لنقل الخبر

(١) من اللافت جداً شيوع الألقاب في هذه الثقافة فكل واحد له لقب لا يعرف إلا به وأحياناً له أكثر من لقب كما سنرى عند تيبو تيب نفسه لاحقاً.
(٢) أي الأنيق أو الجميل.

إلى سيده الذي كان قريباً من تجمعنا إلى حد ما. وبلا تأخير أمر بضرب طبول الحرب وقرر مباغتتنا بضربة عاجلة. لم نعاجل السلطان بالضربة الأولى. في الوقت ذاته كان حول السطان عدد كبير من المقاتلين ولو هاجمناهم مباشرة لوقعنا في خطر عظيم ولكنه استمع إلى نصائح مقربيه. لم نستسغ الطعام أبداً آنذاك.

(١٠) توجه ثاني بن عمر إلى السكان القاطنين بعيداً عن تابورة وأخبرهم أنه يجب عليهم أن يذهبوا حالاً إلى تابورة حيث تجمع الناس وأنذرهم قائلاً: «إن الحرب مَهْلَكَة، ومن لم يجربها فإنها هكذا»، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فلا تلوموني ولوموا أنفسكم﴾[1]. رابط أهل تابورة بها وهرب القاطنون بعيداً عنها ولم يبقَ إلا الذين ظنوا أنهم في مأمن من الحرب. بعد خمسة عشر يوماً عاد سالم بن سيف ومعه مكاسيوا فانكشفت حالاً المعركة التي دامت عدة أشهر. خسر الطرفان خلالها جملة من الرجال. وفي الشهر الرابع نزعنا السلطان السابق ونصبنا مكانه مكاسيوا سلطاناً مكانه. بقيت في تابورة مدة شهرين بعد الحرب، ثم توجهت إلى الساحل فقد عهد إلي والدي أن أبيع عاجاً له ثم أعود إليه بالثمن.

(١١) وصلت زنجبار وكان الحظ حليفي فقد وجدت أن سعر العاج الصغير حجماً أغلى من الكبير وكان سفر الفرسيلة[2] الواحدة

(١) سورة إبراهيم، آية ٢٧.

(٢) الفرسيلة هي وحدة وزن تساوي ستين رطلاً. انظر رزق، حميد بن محمد المرجبي، ص ٣٩. وهذه الوحدة مستخدمة في اللهجة العمانية، ولعلها فارسية.

آنذاك يتراويح بين ٥٠ ـ ٥٥ دولاراً[١] والضريبة ٩ ريالات على الفرسيلة الواحدة. بعت العاج وبلغت والدي البضاعة التي كان قد طلبها. لم أذهب ثانية إلى تابورة لانشغالي بأعمالي الخاصة.

لم تُقيَّض لي رؤية الأخ محمد بن مسعود الوردي فعندما كنا ـ والدي وأنا ـ في سفر كان هو في ناجو (Najo) وفي نياسا (Nyasa) لزيارة أحد أقاربه ويدعى محمد بن سعيد الملقب بواتليزي (Watelezi)[٢]، وأخيراً فإن محمد بن مسعود قصد البندر بينما ذهبت أنا مشياً على الأقدام إلى ماهينجي (Mahenge) لشراء بعض الزيوت.

اقترضت في زنجبار بضاعة قيمتها ألف دولار[٣] وتوجهت إلى منتيجيرا (Mtangera) عن طريقي أوهيهي (Uhehe) ونظراً لحسن القبول الذي كنت أحظى به تمكنت من اقتراض مال آخر يقدر بين

---

(١) كان الدولار ضمن عملات كثيرة تعامل بها العرب في شرق أفريقيا بسبب تعاملهم مع كثير من التجار المتعددي الجنسيات. وقد قسموا الدولار إلى ٤ روبا Roba بايزا Baisa هندية، ٨ بايزا هندية = آنا Anna. وكانت آنا = ٢٥ سنتاً = (١) روبا = ربع دولار، ٢ روبا قطعة مما كان يتعامل بها الوطنيون في الداخل = ٥٠ سنتاً = نصف دولار. وكان العرب يسمون الدولار أبو مدفع وكانت قيمته تزيد في شرق أفريقية من ٦ ـ ٨ % عن ريال ماريا تريزا الذي كان يسمى (بالريال). أما الدولار في زنجبار فكان سعره متقلباً نظراً لأنها بلد تجاري مفتوح.

ومن بين عملات زنجبار القرش والدرهم وكان من الفضة. ويبدو أن القرش كانت قيمته عالية، فقد اشترى أحد الأغنياء غنماً للعيد بمبلغ ٤٠٠ قرش، ويبلغ ثمن العبد ١٤٠ قرشاً. (رزق، ص ٣٩ ـ ٤٠ بتصرف).

(٢) معنى هذا اللقب (Watelezi) هو المنزلق.

(٣) إذا كان دولار ماري تريزا فهو يعادل ٣ ـ ٤. وايتلي.

٤٠٠٠ ـ ٧٠٠٠ دولار وسافرت إلى أوروري (Urori) التي وجدتها كاسدة التجارة مما دفعني للذهاب إلى فيبا (Fipa) ونياموانجا (Nyamwanga) ورويمبا (Ruemba) وأرونجو (Urungu) فجمعت كثيراً من العاج.

لدى عودتي من هذه السفرة إلى أرونجو وجدت أخي محمد بن مسعود في زنجبار، الذي لم تتيسر لي رؤيته مدة اثنتي عشرة سنة فقد كانت رحلاتنا مختلفة الاتجاهات دائماً، فعندما أصل إلى أرونجو يكون هو في البر حتى قيِّض لنا هذا اللقاء أول مرة. لقد ربحت كثيراً من رحلتي الأخيرة. أما الأخ محمد فقد عدل عن رحلته البحرية ليكون بصحبتي. أخذ مالاً قليلاً يقدر ب ٥٠٠٠ ريال ليجرب حظه في التجارة بينما أخذت أنا ما تزيد قيمته عن ٣٠٠٠٠ ريال اقترضتها من عشرين هندياً (مسلمين وبانيان).

الحملة على السامو (١٢ ـ ٣٥)

(١٢) كانت المجاعة متفشية في ساحل مريما. عبرنا طريق أوروري باستخدام رجال من قبيلة كينياموزي (Kinyamwezi)، الذين رفضوا عبور طريق أوروري لبعده عن مساكنهم مما اضطرني إلى مفاوضة قبيلة وزارامو (Wazaramo) المعروفين بأنفتهم من الاستخدام لكنهم قبلوا لما عانوه في الفترة الأخيرة من الجوع والتعب واشترطوا أجرة عشرة ريالات لكل حمال، طلب بعضهم الربع مقدماً وطلب الآخرون الثلث، بالإضافة إلى توفير الطعام من المأكولات النباتية.

(١٣) عمل عندي سبعمائة رجل. غادرنا بتجارتنا زنجبار إلى أمبواماجي (Mbwamaji)، وكانت جلبة الاستعداد وتحميل البضاعة بارزتي الضجيج. تواصل سفرنا إلى مبزي (Mbezi) التي بقينا بها سبع ليال ثم اتجهنا إلى مكامبا (Mkamba) كان طعام الحمالين الذرة التي نفذت في الطريق مما جعلهم يقاسون ضغط الأحمال على بطون خاوية. وما إن وصلنا مكامبا حتى اشتريت مؤونة تضمن عدم نقص التغذية على الحمالين مرة ثانية وأيضاً لصعوبة الحصول على مؤونة بعد هذه المحطة وحتى لوفي (Lufiyi) لهذا العدد الكبير من

الرجال. وزعت المؤونة لكل شخص ما يكفيه مدة ستة أيام واحتفظت بالكمية المتبقية.

(١٤) في اليوم المضروب للسفر لم أجد الحمالين فقد تفرقوا في القرى المجاورة. مائة رجل في هذه القرية ومائة في تلك القرية وهكذا. قرعتُ صباحاً طبول الرحيل فلم يحضر أحد وكأن الجمع قد تلاشى. عندما جاءتني الأخبار بغيابهم ذهبت بنفسي ـ لمزيد من التأكد ـ إلى القرى التي تركوا بها الحمول، وقد هالني الأمر إذ لم أجد أحداً البتة. بعثت إلى أخي محمد بن مسعود وأمرته أن يلحقني ببندقيتي وملابسي وبمجموعة من الخدم.

سرت بمحاذاة مبيزي (Mbezi) وندينجيريكو (Ndengereko)، وبعد ساعات قليلة كان لدي قوة من السلاح والرجال. أدركنا الليل فبتنا على قارعة الطريق وفي الصباح توجهت إلى قرية الحمالين، وجمعت كبار السن بها وأقارب الحمالين فبلغوا على الجملة مائتي رجل. لم يكن الحمالون قد وصلوا إلى قريتهم بعد.

ضرب أهل القرية طبولهم[١] للتجمع فجاء الحمالون الذين رأوا ما صنعت فأظهروا الطاعة وعادوا معي. واصلت الطريق لتجميع الحمالين من ندينجيريكو ومبيزي وفتشت في كل جزء من زارمو (Zaramu) والحدود المحيطة بها مما يقطع في خمسة أيام فجمعت ثمانمائة رجل. لقد لقبوني بعد هذه العملية بكينجوجوا[٢]

---

(١) ربما كان لكل قبيلة إيقاع معين يتواصلون بها.
(٢) هذا هو اللقب الأول للمرجبي، ومعناه الضبع الأرقش.

(Kingugwa) أي الضبع الأرقش ذلك الوحش الذي ينقض خاطفاً هنا وهناك. قدتهم جميعاً بعصي الموت عائدين إلى مكامبا.

(١٥) من هناك توجهت إلى زيريري (Zerere)، وهي خلف منطقة كوالي (Kwale) حيث يسكن أحد البانيان واسمه حيلة (Hila)[١] وهو يملك - في الواقع - دكانين، أحدهما في مبواماجي والآخر في زيريري قرب كوالي. قصدت حيلة في دكانه الثاني وسألته أن يزودني بقطع من المعدن فوفر لي الكمية التي أريد. عدت بها إلى مكامبا ليسبكها الصانع - الذي كان بصحبتي - سلاسل وضعت جميع الحمالين بها وجعلت أخي في المقدمة وتبعتهم أنا لضبط من يحاول الهرب. أطلق هؤلاء الحمالون لقب كومبا كومبا (Kumbakumba) على أخي وهو لقب يطلق على الشخص الذي يفتك بكل أحد.

(١٦) تابعنا المسير حتى وصلنا أوروري التي كان يتزعمها ميريري (Merere) وحال وصولنا تركت البضاعة من الخرز وغيره مما يقدر بقيمة ٦٠٠ دولار بعهدة شاب من مباواماجي. كانت المقايضة على اعتبار الوزن، فالفرسيلة من الخرز يقابلها فراسلة من العاج، أما القماش فمن ١٢ إلى ١٥ قطعة يعادلها فرسيلة واحدة من العاج وقطعة الصابون بفرسيلة واحدة من العاج. هنا ربحت مالاً عظيماً.

---

(١) ربما كان الإسم هيلا، ولا علاقة له بالكلمة العربية. وقد توخينا فيما أثبتناه في الترجمة أن يكون الاسم عربياً ومؤشراً للأثر العربي الإسلامي في شرق أفريقيا الذي أحببنا أن نظهره.

(١٧) ذهبنا أنا والأخ محمد بن مسعود الوردي[١] وبشير وعبد الله ابنا حبيب بن بشير الوردي وعمي والعديد من إخواننا ومن معنا من الأتباع الذين يبلغون ثلاثين رجلاً كنا مسلحين بالبنادق، تسعون منها لدى رجالنا. وهي جميعاً على الجملة مائة وثلاثون بندقية. لقد كان قرارنا واحداً وهو التوجه إلى رويمبا.

(١٨) أغذذنا المسير حتى وصلنا إلى قرية رويمبا حيث قابلنا مجموعة من الرجال من موامبا (Mwaba) ومن كيتيمكارا متوكا (Kitimkara Mtuka) المواميبون هم الأخوة الصغار للحمالين الذين معي. رأينا أن ندخل رويمبا ولكننا لم نجد بها طلبتنا من العاج، لذا قررت مواصلة المسير إلى أيتاوا (Itawa) خلف بحيرة تانجانيقا حيث تسكن قبيلة السامو (Samu) خلفت أخي مع المواميبين ومعه خمس عشرة بندقية وأخذت البنادق الأخرى المتبقية وعددها مائة وخمس.

حاول الحمالون ثنيي عن الذهاب قائلين: «لا تذهب إلى السامو صحيح أن لديه كثيراً من العاج ولكنه لا يؤتمن، لقد قتل أعداداً كبيرة من العرب والعبيد وآخرين من ساحل مريما، ربما كان يخدعهم برؤية العاج وبرؤية بضائع أخرى ثم ينقض عليهم، من الأفضل لك أن تبقى هنا جانياً ما يمكنك من فائدة تجارية. إننا نعرف شخصية السامو على مدى طويل». في نهاية المطاف واصلنا

(١) اسقط وايتلي الاسم واعتبره أخاً فعلياً والواقع يخالف ذلك. وهو أخوه لأمه فقط وليس شقيقاً.

المسير إلى أورونجو. كل الحمالين مجمعون على أننا لن نعود من هذه الرحلة. قالوا لي: «إنك تحمل نفسك وبضاعتك إليه».

(١٩) وجدنا أحد المعمرين العرب واسمه عامر بن سعيد الشقصي الذي قال لنا ناصحاً: «لا تذهبوا إلى أرض السامو فمنذ أعوام بعيدة ذهبت هناك برفقة محمد بن صالح النبهاني وحبيب ابن حمد المعمري وآخرين من العرب والأتباع من سكان الساحل، لقد هوجمنا ونهبت بضاعتنا، بل إن بعضنا قتل، وما نجا منا إلا من التجأ إلى رؤساء متامبارا (Mtambara) وإلى رؤساء أخرين. أرى أنه من الحكمة أن تبقوا هنا حيث يمكنكم الحصول على قدر معقول من العاج».

(٢٠) لم نأخذ بنصيحته، وبعد أربع ساعات واصلنا المسير إلى أرض أرونجو حيث عبرنا نهراً عظيماً يشكل حاجزاً طبيعياً، مارين بعدد لا يحصى من القرى. كانت المنطقة مكتظة بالسكان مسيرة ستة أيام. والانتقال من مكان إلى آخر يستغرق ساعتين نقطع خلالهما غابات وقرى تبلغ المائتين وربما الثلاثمائة غير محكمة التحصين عدا تلك الخاصة بالزعماء وهم أبناء السامو نفسه وأبناء أخيه وأحفادهما.

مررنا خلال تلك الأيام الستة بما يقارب ألف قرية. وكانت قرى الزعماء مميزة بعظمتها. في هذا الزمان تعرضت هذه المنطقة لغزو قام به رجال المافيتي (Mafiti)، الذين لم يستطيعوا التغلغل في أرض السامو الذي دحرهم بشكل لا يمكن معه أن يفكروا ثانية في غزو أراضيه. إن سكان رويمبا وسكان ورونجو (Rungu) يدفعون

ضريبة إلى السامو، كما تفعل جميع القبائل الأخرى مثل قبيلة بويتو (Pweto) وكيسابي (Kisabi)، وحتى أولئك الذين يسكنون واروا (Warwa).

(٢١) بلغنا في صباح اليوم التالي مشارف قرية السامو، صعدنا تلاً صغيرة فبدت قرية السامو في الجانب الآخر عظيمة جداً. استقبلنا بعض حاشية السامو وأخذونا إلى مكان ليس ببعيد عن القرية. وجدنا فيه المخازن الكبيرة التي بنيت في ثلاثة صفوف، وهي محصنة بأخدود عظيم وأشجار شائكة. في الصباح التالي أرسل السلطان بعض حاشيته يدعونا للقائه، فذهبت ومعي رئيس الحمالين. أخذنا بعض الثياب كهدايا. وجدناه طاعناً في السن يتراوح عمره بين السادسة والثمانين إلى التسعين. قال السلطان لحاشيته: «احملوني لأريهم العاج». أخذوه محمولاً على مِحَفَّة، فأرانا كميات عظيمة من العاج مخزونة في منزل كبير. قلت له: «ألن يهبني السلطان قطعتين من هذا العاج» فاهتاج غضبه. هنا عرفنا حقيقة الأمر وهي أن كل هدايانا له ذهبت هباءً. لقد أعطينا أتباعه بعض الهدايا وأعطونا ثلاث قطع من العاج مقابل ذلك. أما السلطان فقد أعطيناه النصيب الأعظم من الهدايا وهو الآن ساخط علينا.

(٢٢) ودعناهم وعدنا إلى مخيمنا. بعث الساموا إلينا خدمه في صباح اليوم التالي يدعونا إلى قريته. فتوقعنا أننا سنحصل على بغيتنا من العاج، ولكن الحقيقة ـ التي لم تكن لتفوتنا ـ هي أن السامو جهز جنوده للانقضاض علينا. تقدم عشرون منا بالإضافة إلى عشرة من العبيد وكنت على رأس القيادة وفجأة أصابتني ثلاثة سهام اثنان

منها إصابة عرضية والثالث أصابني مباشرة. كذلك أصيب أصغرنا سعيد بن سيف المعمري واثنان من العبيد اللذين فارقا الحياة مباشرة. وعلى الرغم من المباغتة إلا أننا استطعنا استغلال بنادقنا المحشوة بالرصاص وفتحنا النار عليهم فأخذ الأعداء يتساقطون كالسردين. دورة واحدة أسقطتهم كالعصافير. عندما أوقفنا إطلاق الرصاص وجدنا أن مائتين منهم ماتوا بالرصاص وآخرين ماتوا دوساً تحت الأقدام وهرب الناجون. وهكذا فخلال ساعة واحدة مات أكثر من ألف من أعدائنا. أما الخسارة من جانبنا فتتمثل في مقتل اثنين فقط من العبيد وجرح آخر.

صار الوضع الآن كالتالي: أمامنا قرية عظيمة ضرب أهلُها وفروا هاربين بسلطانهم. ومع تمام الساعة الثانية[1] كانت القرية خالة إلا من العميان والمقطوعي الأعضاء الذين فقد بعضهم أنفه وآخرون أيديهم وسملت عيون الذين ارتكبوا جرماً. إن هذا الرجل لا يعرف الرحمة. بعثنا بعض الرجال إلى المخيم ليتفقدوا أحوال الرجال المرابطين هناك والبضائع فوجدوهم في أمان. ثم دخلنا القرية.

(٢٣) ومع الظلام جاءت قوة وأحاطت بالقرية. فقال البعض: «لنسر إليهم ليلاً ونفنيهم»، وقال آخرون: «الأفضل أن نسير إليهم نهاراً». هذه قوة عديدة الرجال جمع فيها السامو أتباع أبنائه وكل الذين يسكنون في أماكن قريبة. لم يتخلف عن المجيء إلا الذين

(١) التوقيت هنا هو التوقيت الذي ورد في الأصل والذي يبدأ مع طلوع الشمس، والذي نقله العمانيون إلى شرق أفريقيا، أما وايتلي فيذكر أنها الساعة الثامنة على اعتبار توقيت الزوال. وسوف نعتمد التوقيت الذي يرد في الأصل في المواضع القادمة إبقاءً للأثر العربي.

يسكنون في أماكن بعيدة جداً. بالنسبة لي فقد كنت طريح الفراش بإصابتي لذا استدعيت خالي بشير بن حبيب الوردي وسألته عن رأيه قائلا:

«أعرف مدى حرصك على إعمال الرأي الأصوب فقل لي ماذا ترى؟». وكان من رأيه أن قام مباشرة بجمع ما بين خمسين إلى ستين من أفضل جنودنا وأعطاهم البنادق والذخائر.

قارن الأعداء أعدادهم الكبيرة بأعدادنا الصغيرة فغرتهم كثرتهم. أشعلوا النيران وضربوا الطبول واختلطت رائحة الغليون برائحة أشجار مخدرة.[1] أعطيت أوامري لجنودنا ولبشير بن حبيب بأن يجعلوا عشر بنادق في كل مدخل، لن يرونا بسبب النار المشتعلة، فافتحوا النار عليهم وعودوا بعدها مباشرة. ذهب كل عشرة إلى مدخل وعندما اقتربوا منهم أطلقوا البنادق عليهم. اعتقد الأعداء أن مخابئهم تم تدميرها. عاد رجالنا. كنا نسمع الأعداء يستصرخ بعضهم بعضاً. لقد تساقطوا في أماكن نومهم نفسها.

(٢٤) قبيل الصباح ذهب عدد من رجالنا ليروا القتلى من أعدائنا حيث سقط أكثر من ستمائة منهم، وأسلحتهم من السهام والأقواس وكذا طبولهم وفؤوسهم إلى جانبهم. ومما زاد في فتكهم أنهم كانوا مشدودين إلى بعضهم. مكثنا شيئاً يسيراً من الوقت. ومع الساعة الثانية صباحاً ظهر لنا الأعداء ثانية في تجمّع آخر وكنا على أتم الاستعداد للمواجهة. لم نتعرض لهم حتى

(١) لعلها من طقوس الحرب لدى القبائل الأفريقية.

وصلوا قريباً من مخازنهم وفي أقل من سبع دقائق فتحنا عليهم النار وأنهينا كل شيء. فروا مخلفين وراءهم مائة وخمسين قتيلاً. أما خسائرنا فلا تذكر، قتل منا اثنان فقط. عدنا إلى مخيمنا بعد نزال ومطاردة دامت ساعتين.

في اليوم الثالث ظهر لنا جيش عظيم من الأعداء أكبر مما واجهنا في المرتين الأخيرتين. تقدموا حتى اقتربوا من مخازنهم هنا هجمنا عليهم هجمة واحدة أسقطت منه مائتين وخمسين. ثم طاردهم جنودنا غلى مسافات بعيدة مسيرة سبع ساعات خسرنا ثلاثة رجال وجرح أربعة.

(٢٥) لم يعودوا ثانيةً. وبعد هذه المخاطرة لم يعد أحد منا يرغب في العاج. كنا خائفين لأن البلاد شاسعة جداً وسكانها كثيرون وهم أصحاب غدر، وفوق ذلك كله سوف تستغرق رحلتنا من حيث نحن ـ قرب قرية السلطان ـ إلى أرونجو أربعة أيام بما معنا من الحمول. هذا إذا لم يعترض طريقنا شيء.

أقمنا بالقرية مدة شهر.

بعد أن تماثلت للشفاء من جروحي جمعت من معي من الأحرار[١] والعبيد وسألتهم: «ماذا تريدون أن نعمل؟». فلم يجبني أحد. فطرحت عليهم وجهة نظري المتمثلة في أنه يتحتم علينا تتبع الأعداء ومعرفة مكانهم لأننا لا نعرف عنهم اي شيء لمدة طويلة.

(١) في الأصل (Waungwana) ومعناها القاموسي الرجل الحر، أو المتحضر وتطلق على كل من يعتنق الإسلام ويلبس الدشداشة ويقابلها (Mtumwa) وتعني العبد.

قال بشير بن حبيب الوردي: «سوف أذهب أنا لأنه ليس هناك ما يلزم أن تذهب بنفسك، ثم إنك لم تسترد عافيتك بعد».

(٢٦) ترك معي عشرين بندقية وأخذ البنادق الأخرى وعدد خمسمائة من الرجال غير المسلحين. غادروا الساعة الواحدة صباحاً، وانتظرنا حتى الساعة الحادية عشرة عصراً فلم يعودوا ولم نجد أي خبر منهم. خفنا عليهم كثيراً. وبُعيد حلول الظلام بقليل وصلتنا أصوات الطبول من قمة التل. هاهم عادوا بالبشرى وأشعلوا النار وأطلقوا الرصاص ابتهاجاً. ظهروا بعد فترة وجيزة ومعهم عدد من الأسيرات والأسرى فبلغ عددهم جميعاً ألف نفس بالإضافة إلى قطيع عظيم من الأغنام أكثر من ألفي رأس سألناهم عن الأخبار فأفادونا بالتالي:

(٢٧) عدنا سالمين جميعاً لم نخسر نفساً واحدة وقد شاهدنا جماجم أكثر من ستين من الأحرار لا نعرف من أين قدموا، سألنا النساء الأسيرات عنهم فقلن إن معظمهم جاءوا من أرونجو لشراء العاج وكانوا ـ كما يبدو ـ يبحثون عن الطريق إلى رويمبا، وهو المكان نفسه الذي تركت فيه أخي عندما عبرنا أرونجو إلى أرض ماريرا (Marira) وحيث وجدنا عامر بن سعيد الشقصي. سألنا الأسيرات: «كيف قتل هؤلاء القوم؟» فأجبن: «إنه في اليوم نفسه الذي نازلنا فيه السلطان واضطررناه للهرب ـ وصلتنا الأخبار بذلك، ولم يعرف القوم بما دبرناه وقتلوا من غير سابق إنذار، ومن تمكن من الهرب فَقَدَ كلَّ شيء». لم يكن بين هؤلاء أحد من العرب. وقائدهم من كيتامبوا (Kitambwa) من أرونجو. وهي واحدة من

قوافل سعيد بن علي بن منصور الهنائي وسليمان بن زاهر الجابري الذي يسكن تابورة وخمسي ولد متاو خادم عائلة عبد الرحمن صديق. حاز عبد الرحمن هذا ثراءً طائلاً يعاونه مجموعة من الشباب سكان ساحل مريما. ومن بين الذين قتلوا ـ أيضاً ـ رجال من قبيلة ويندي (Winde).

(٢٨) مكثنا يومين بعد غارتنا الأخيرة ولما تأكد لنا أننا دمرنا أعداءنا ولم نبقِ لهم أي قوة قررنا السطو على العاج. وزناه جميعه الكبير منه والصغير فوجدناه يبلغ ألفاً وتسعمائة وخمسين فراسلة. أما الصغير فيبلغ على الأرجح سبعمائة فراسلة بما عليه من أملاح. رأينا أن ننقل العاج إلى أرونجو. غادرت بمن معي وبالعاج وببعض المقادير من الشبه[١]. لقد حملنا ما أمكننا حمله مسافة ثلاث ساعات وقد توقفنا عندما بلغنا القرية التي اتخذتها كمركز لتجارتي، وعاد الحمالون لجلب شحنة أخرى. فما أن حلَّ المساء حتى كنا قد نقلنا كل ما نريد.

(٢٩) وصلنا أرونجو إلى قرية شانجو (Changu) بشكل أخص على هذا الحال، عابرين النهر حيث استقبلنا استقبالاً حاراً. حدثني أحد زعماء هذه القرية قائلاً: «أرض السامو كانت تحت سيطرتي ولكن السامو نافسني عليها ونهبني أكثر من ثلاثمائة قطعة من العاج وعدداً من زوجاتي. حدث هذا منذ زمن بعيد. والآن بعد وصولك

(١) الشبه التي ترد في المعاجم العربي ومعناها النحاس الأصفر، ويبدو أنها تسربت إلى السواحلية عن العربية.

هنا سوف أعتبرك أخص أصدقائي، وإني أسالك أن تستوطن هذه القرية، فبلاد السامو شاسعة جداً وتحتاج لاجتيازها أربعة أشهر على الأقل وقد لا تتمكن من اجتيازها. نحن أصدقاء ولذا سوف أريك المكان الذي قتل فيه الأحرار.

(٣٠) شكرته وبعثت بعض رجالي إلى كيتامبوا الواقعة أعلى أرونجو حيث وجدت بعض أقارب المقتولين. عندما وصل رجالي إلى كيتامبوا تعرف عليهم أولئك الأقارب وقالوا لهم: «لقد سمعنا أن الذي قاتل السامو يدعى تيبو تيب ولم نتوقع أنه هو حمد بن محمد نفسه». ومن الآن سأعرف بلقب تيبو تيب[١] الذي أطلقه علي أولئك السكان المخليون. كانوا يقولون أن بندقيتي تطلق في كل الاتجاهات كبيان لمدى شدتي في الحرب.

(٣١) جاء بعض الأقارب للاطمئنان عليَّ وهم سعيد بن علي ومن معه. اقترحوا أن يسكنوا بجواري في هذه القرية فأخبرتهم أنني لن أغادر هذا المكان حتى أسحق رجال السامو جميعهم أو يعلنون الاستسلام. لقد أَعْلَنْتُ الحرب. أما سعيد بن علي فقد عاد إلى موطنه السابق.

(٣٢) خرج بعض رجالي متتبعين فلول الأعداء، وقبل أن يبلغوا هدفهم صادفوا رجلاً أوروبياً إنجليزيّ الأصل، من الشخصيات الهامة، يدعى لفنجستون (Livingston) واسمه الأول ديفيد[٢]

---

(١) هذا هو اللقب الثاني له وهو محاكاة صوتية لصوت إطلاق البندقية.

(٢) هو المستكشف الجغرافي المعروف ديفيد لفنجستون (١٨٧٣ ـ ١٨١٣) David Livingston طبيب إنجليزي نشأ في مدينة جلاسجو باسكتلندا في أسرة متدينة. قام=

(David) كانوا هو والعشرة الذين معه ـ وهم من السكان المحليين ـ مشرفين على الهلاك. رجع بهم بعض رجالي إلى المعسكر بينما تابع الآخرون بحثهم عن رجال السامو. استمرت غاراتنا على السامو مدة شهرين كاملين حتى أذعن وطلب إيقاف الحرب. لقد كنا نريد أن نوقع معاهدة السلام أيضاً بعد أن استسلم السامو ودفع لي خمسين قطعة من العاج تاجرنا معه أيضاً بما يعادل مائتي فراسلة. لقد نفد العاج أجمعه مما دفعنا للتوجه إلى كابويري (Kabwiri) قرب بحرية مويرو (Mweru) وهي توازي في سعتها جزيرة تانجانيقا.

أما بالنسبة للفنجستون فقد كان خالي الوفاض ليس معه شيء من البضاعة ولا شيء من المؤونة. أدخلناه ـ سعيد بن علي وأنا ـ إلى المعسكر. طلب لفنجستون دليلاً يرشده الطريق إلى بحيرة مويرو. ذهب وعاد ثانية هذه المرة بحماس لزيارة رواندا الخاصة بالكازمبي (Cazembe). أعطيناه بعض الأدلاء كما أنه اختار أحد أقاربي واسمه سعيد بن خلفان لمصاحبته إلى تلك الحدود. والحقيقة أن أحد أقارب والدي واسمه محمد بن صالح النبهاني استوطن رواندا، أعرف ذلك لأني قد زرته منذ زمن بعيد بصحبة الوالد، بعد أن

=برحلات ثلاث إلى شرق أفريقيا الأولى (١٨٤١ ـ ١٨٥٦)، والثانية (١٨٥٨ ـ ١٨٦٤)، والثالثة (١٨٦٦ ـ ١٨٧٣). اكتشف في الأولى أجزاء من نهر الزمبيزي وفي الثانية أكمل كشف هذا النهر وكشف نهر شيري ووصل ساحل نياسا، وفي الثالثة التي كانت بتكليف من الجمعية الجغرافية الملكية بلندن اكتشف أنهار وسط أفريقيا وبحيراتها، وقد التقى بتيبو تيب في رحلته الأخيرة التي توفي خلالا، رزق، ص ٨ ـ ٩ بتصرف.

خسر كل تجارته. بعثت إلى هذا الرجل رسالة شفوية مضمونها أن لفنجستون سوف يصله والرجاء منه أن يقابله بما يليق ويسهل له أموره. قام أصحاب المعروف بإيصال لفنجستون إلى هدفه باحترام وتقدير شديدن، ثم إن لفنجستون طلب أدلاء آخرين ليبلغ أماكن أخرى.

كان لفنجستون قد أخبرني في وقت مضى أنه عندما غادر زنجبار أبحر إلى ناجاو (Nagao). وقبل هذا قال لي: «عندما غادرت الساحل تركت أحمالي لتصل إلى أوجيجي ببحيرة تانجانيقا، سأكون ممتناً لك إذا تمكنت من إرسالها إلى أوجيجي». بعَيْدَ هذه المحادثة جاءني بعض الأصحاب من أوجيجي لشراء الشبه وبينهم أحد أصدقائي واسمه هيبي (Hebee) الذي صاحبني في بعض رحلاتي بين بحيرة تانجانيقا وأروا (Urua). أعطيته الصناديق، وقلت له: «عندما يأتيك مالكها سلِّمها له». أعطيته أتعاب هذه العملية وبعضاً من بضاعتي ليتاجر بها.

(٣٣) بعد أن أنهينا جميع أعمالنا بدأنا رحلة العودة إلى الساحل. زرنا السامو للسلام عليه في جو مفعم بالصداقة. وبالرغم من أنه رفض مقابلتي إلا أنه قابل أقاربي. وصلنا أرونجو، وأظهر ناسها استقبالاً حسناً لنا، كما قاموا بحمل العاج الخاص بي إلى مامبوي (Mambwe). هنا تركت أقاربي ذاهباً إلى رويمبا بحثاً عن أخي محمد بن مسعود. عرض عليَّ أهل رويمبا رجالاً لحمل العاج إلى حدود مامبوي، وهكذا كانوا متعاونين معي لأنني قمت بالتصدي للسامو إذ لم يستطع أحد مقاومته من قبل، فكان السامو

وكازيمبي يتقاسمان السيطرة على المنطقة. ولأجل هذا قام سكان مامبوي بنقل العاج إلى نيكا (Nyika)، ومنها حمله رجال هذه المنطقة الأخيرة إلى أسافا (Usafa) وأوروري.

عندما وصلنا إلى هذه النقطة البعيدة أخذنا استراحة قصيرة لبعض الوقت. كانت الزعامة في هذا الزمان في يد مريري واحد من الزعماء الأقوياء يقر له بذلك الهيهي (The Hehe) زعيم أُبينا (Ubena) وزعيم منتيجيرا. كانت علاقتنا به علاقة مودة خالية من أية شائبة.

(٣٤) حال وصولنا إلى أوروري لم نجد كفايتنا من الحمالين للذهاب إلى الساحل لذا فقد وجدت أنه من الأصوب التوجه إلى تابورة لجلب حمالين من قبيلة نيامويزي. تركت العاج في عهدة أقاربي. للأسف لم أجد والدي محمد بن جمعة بتابورة، فقد كان مسافراً كافيندي (Kavende)، كما أن جميع عرب تابورة كانوا خارجها في محاربة مكاسيوا. لم آتِ هنا منذ خروجي من أونيانيامبي إلى الساحل. أتيت هذه المرة لزيارة والدي. لم يبقَ أحد عدا سعود بن سعيد بن ماجد المعمري ـ أخ سيف بن سعيد ـ الذي سأل عني أثناء ذهابي إلى المكان الذي يقطنه والدي حيث وجدت زوجته كاروندي بنت الزعيم فوندي كيرا التي أصبحت امرأة يافعة، ولم تجعل لي فرصة لمغادرة المنزل إلا بعد إلحاح شديد مني.

في اليوم الثاني عاد جميع العرب الذين كانوا في حملة ضد مكاسيوا وقد خسروا أحد قادتهم وهو سليمان بن راشد المنذري، مما أحزنهم حزناً شديداً. لقد التقيت الكثير من أقاربي بعد فراق طويل دام شهرين إلا أنني لم ألتقِ بوالدي بعدُ، وليست هناك أيُّ بوادر تشي

بقرب وصوله. لذا فبعد أن جمعت ما أريد من الحمالين عدت إلى أوروري بصحبة سعود بن سعيد ابن ماجد المعمري الذي كان ـ مع أتباعه ـ من أعزِّ أصدقائي حيث كنا سوياً مدة ستة عشر يوماً قبل أن أتوجه إلى الساحل. لقد افترقنا عند نجوروريرو (Ngururero)، توجه المنذري إلى مقصده بينما توجهت أنا إلى أوروري.

(٣٥) أما من ناحية عملي في ساحل مريما فقد عهدت به إلى واحد من قبيلة مبواماجي (Mbwamaji) وتبلغ قيمتها ستة آلاف دولار، خسر أكثرها وما بقي معه لا يصل ست فرسيلات من العاج، وجاريتان اشتراهما بعشرين فراسلة من العاج لا تستحقان القيمة المدفوعة فيهما. غضبت عليه غضباً شديداً ولم أدر ما أصنع به فسجنته أربعة أيام ثم أطلقت سراحه، وقلت له: «من يضرب نفسه لا يبكي، وأنا ضربت نفسي لأنني ائتمنت أمثالك على بضاعتي». كما أن أموال أخي محمد بن مسعود والتي تقدر بستة آلاف دولار كانت في يد أحد وكلائه اسمه مهدي بن بكر فاكي والذي مات لاحقاً مجدوراً. لقد أضاع هذا الوكيل الكثير من تلك الأموال. بعودتي من أوروري قادماً من تابورة نزلنا مباشرة إلى الساحل.

العودة إلى الساحل وتجهيز رحلة أخرى (٣٦ ـ ٤٣)

(٣٦) دخلنا دار السلام في الثاني والعشرين من رمضان، ونمنا ليلتنا في متنوي مانجارا (Mtoni Mangara)، وفي الضباح توجهنا إلى المدينة حاملين كميات عظيمة من العاج. كانت دار السلام آنذاك غاصة بالقادمين من زنجبار من عرب وبانيان وهنود[١] وبها أيضاً أوربيون من لامو (Lamu) وممباسا[٢] (Mombassa) وعرب آخرون من بيمبا[٣] (Pemba) وأناس من أقاصي ساحل مريما بالإضافة إلى السفراء ورجال الأعمال من كل حدب وصوب. وحتى السيد ماجد ـ شخصياً ـ كان هناك لأنه يريد الإقامة في وسط البلاد[٤]. لم تصل أية شاحنة حتى ذلك الوقت فكانت قافلتي أول القوافل.

كان الصخب عالياً والفرحة عارمة بين التجار الأثرياء الذين اقترضت منهم نقوداً فيما مضى، كانوا يملأون المكان.

---

(١) الهنود المسلمون، تميزاً لهم عن البانيان.
(٢) اسم عربي ركب تركيباً مزيجاً لكلمتين «من بأس» إشارة إلى الحروب التي شهدتها.
(٣) التي تُعرف أيضاً بالجزيرة الخضراء.
(٤) التحديد إضافة من المترجم الإنجليزي.

أردت الذهاب إلى زنجبار ولكن السيد لم يدعني أذهب بل أمرني أن أعطي التجار حقوقهم من العاج حتى يمكنهم المغادرة أيضاً، ومن ثم علي أن أنتظره لنرحل سوياً بعد عيد الفطر.

مكثنا حتى انقضى عيد الفطر فسافر السيد على سفينة فرنسية وسافر سكرتيره الخاص سليمان ابن علي الدرمكي على إحدى سفن السيد الصغيرة أما أنا وبعض رجاله الآخرون وجميع العرب والبانيان والذين جاءوا من لامو وممباسا وعرب الجزيرة الخضراء فقد ركبنا واحداً من مراكب السيد ماجد الواسعة. وصل السيد أولاً ومن ثم سكرتيره الخاص وأخيراً مركبنا.

(٣٧) مكثنا في زنجبار ستة أشهر، استدعاني السيد ماجد وسألني: «هل تنوي السفر؟» فرددتُ بالإيجاب فقال: «إذن خذ بضاعتك من ست لادا (Set Lada) مسؤول الجمارك». «جميل جداً»، كان ردي. يتمتع مسؤول الجمارك الحالي بتقدير السيد ماجد الذي لا يرفض له طلباً. لم أكن أود أن أستلم البضاعة بنفسي منهم إذ لا تعجبني طريقتهم البجحة في التعامل، فهم يتصرفون باستعلاء كبير.

لقد تعاملت مع الكثير من التجار وكان أكثر تعاملي مع نور محمد بن هرجي وابن سليمان وارث العدواني.

(٣٨) قررت بعد عام كامل القيام برحلة وذهبت إلى راشد بن وارث العدواني ونور بن محمد وأخبرتهم أنني سوف أقوم برحلة تجارية ولا أريد أن أحصل على بضاعتي من تجار متعددين، وأريدهم هم أن يزودوني بما أحتاج. أجابوا أنه ليس لديهم البضاعة

الكافية ولكنهم سألوني ألاّ أذهب إلى البانيان وأنهم سوف يكلمون السيد تاريا (Taria) الذي سيزودني بكل ما أريد. انتظرت طويلاً ولم أجد منهم أي شيء، كلُّ ذلك والبانيان يبعثون إليَّ بالرسل لتجهيز بضاعتي. عندما أيقنت أنه لا فائدة ترجى منهم ذهبت إلى ست لادا وأخبرته بعزمي على السفر فما كان منه إلا أن زودني بما يعادل خمسين ألفَ دولار.

(٣٩) حتى هذا الوقت لم أكن أملك أي عقار بزنجبار وليس لدي بيت ولا مزرعة، كل ما حققته هو أن تزوجت ابنة سليمان بن عبد الله البرواني صاحبة الثروة الكبيرة في زنجبار ومسقط.

ذهبت بعد صلاة الجمعة إلى البانيان لتحصيل بضاعتي فأخذت في ذلك اليوم ما يزيد عن ستة آلاف دولار. عندما كان الرجال منشغلين بتحميل البضاعة رآهم وارث العدواني فسأل: «لمن هذه البضاعة؟» أجابوه: «إنها لحمد بن محمد». ذهب مباشرة إلى تاريا توبان وأخبره بما رأى فأمره الأخير أن يسير إلى مكان إقامتي لإحضاري إلى منزل الأمريكيين بشنجاني (Shangani).

(٤٠) ذهبت في الوقت المحدد فوجدته هناك حاضراً قبلي. سألني: «لماذا أخذت بضاعتك من البانيان؟ لقد قلت لوارث العدواني إن حمد يمكنه أن يأخذ من البضاعة ما يريد». قلت له: «لم يخبرني العدواني بذلك». قال: «على كل حال أعد للبانيان بضاعتهم وخذ ما تشاء».

ذهبت إلى التاجر البانيان وأخبرته أنني اتفقت مع أحد الأثرياء ـ ولم أسمِّ أحداً ـ يزودني بما أريد، فرفض البانيان استرداد البضاعة.

فبعثت إليه الأخ جمعة بن سيف بن جمعة بالبضاعة فلم يوافق أيضاً. فاقترح جمعة أن أزيد البانيان أربعة آلاف ليكون مجموع ما للبانيان عشرة آلاف دولار فرضيت بذلك.

ومع الجمعة الثانية كانت البضاعة الجديدة جاهزة للشحن. هذه هي المرة الأولى التي يجهز فيها تاريا قافلة تجارية. أخذت كميات كبيرة من البضاعة ـ كما أريد ـ وأرسلتها إلى موكي كانجي هانسراج (Muki Kanji Hansraj) الهندي، ومعها الحمالون ومؤنهم لأن الكميات كانت ضخمة جداً. عندما بلغت المحمولات عدد مائتين ذهبوا مباشرة إلى تابورة لتُسلَّم إلى والدي بإتورو (Ituru).

(٤١) لقد اشتريت كميات عظيمة من البارود وأخذتها إلى منانزي موجا (Mnazimoja) أولاً ومن ثم إلى باغاني (Baghani) حيث أقيم. كانت قيمة خمسة وعشرين رطلاً من البارود الإنجليزي تساوي ثلاثة دولارات وثلاثة أرباع الدولار بسعر ذلك الوقت وبلغ ما في حوزتي منه ما يعادل خمسة آلاف دولار. بعد عشرة أيام أخذتها للشحن في باجامويو (Bagamyo) بعض البارود كان قد حمل من قبل.

(٤٢) بعد شهر من تحميل البارود وفي حوالي الساعة الثالثة ليلاً جاءني أحدهم واستدعاني. فنزلت إليه من الطابق الثاني. نزلت لأجد سليمان بن سعيد بن سليمان البرواني وسيف بن غفيل اللذين أخبراني أن الشيخ سليمان بن علي يدعوني لمقابلته. ذهبت إليه فسألني: «ألست أنت الذي حمل البارود من أمام القنصلية؟» اعترفت بذلك. قال: «هل أنت مجنون؟». أجبته: «لدي أسبابي

لعمل ذلك». قال: «ألم تعلم أنه ممنوع تخزين البارود في المدينة؟». ادعيت أنني لا أعرف هذا المنع فقد قضيت مدة طويلة خارج زنجبار في أسفار طويلة. واصلوا استجوابهم قائلين: «لماذا تحفظ البارود داخل منزلك؟ ألا تعلم أنه من أراد باروداً فعليه أن يحمله إلى مركبه مباشرة من كيزيزينجو (Kizizngo) ويغادر من هناك؟ لا يمكن أن يدخل البارود إلى المدينة مطلقاً». كررت بأنني لا أعرف كل ذلك فأمروني العودة في اليوم الثاني.

عدت إلى منامي وذهبت إليهم في اليوم الثاني حوالي الساعة الرابعة صباحاً. قيل لي أن السيد ماجد أمر بسجني مدة شهر كامل أو أن أدفع القيمة الكاملة للبارود. فأجبت إنني أؤثر الدفع على السجن. «ما قيمة ما عندك؟». قلت: «أعتقد أنه يزيد عن أربعة آلاف ولكنني أفضل الدفع على السجن ولو لمدة يوم واحد». أخبرت فيما بعد أن السيد ماجد لا يعرف شيئاً عما حدث وهذه جميعها أعمال القنصل وأنه من الأفضل أن أبقى في السجن عدة أيام فقط لإرضائهم. وافقت على ذلك وحصلت على غرفة جيدة وكان عبيدي يخدمونني حتى الإماء كان مسموح لهن يبتن معي. دخلت السجن قبيل المغرب ونمت الليلة الثانية وغادرت في اليوم التالي.

(٤٣) مرت يومان وفي الثالث ذهبت إلى القنصل السيد جون كيرك (John Kirk). قال إنه لم يرني منذ مدة. قلت: «نعم ذلك صحيح فقد كنت منشغلاً بموضوع البارود». «هل أنت الذي أرسل إلى السجن بسبب ذلك؟». «نعم». «لم أكن أعرف أنه أنت من كان

يشحن البارود». تأسف لذلك فقد كان صديقاً للفنجستون. و[قد سبق للأخير] أن أعطاني خادماً وخطاً[1] لحملهما إلى الساحل، وقد بلغت هذا الرجل [جون] جميع أخباره [لفنجستون). وعندما أعطيته الخط انشرح لي وخصني في المعاملة. وبالمناسبة فإن هذا الخادم لا يزال يعيش حتى اليوم.

(١) الخط: الرسالة المكتوبة وقد استعملت في الأصل نقلاً عن العربية. وتكتب قديماً (Khati) ثم غدت تكتب (Hati) فحدث تغيّر في نطقها وابتعاد عن أصلها العربي. ويستخدم تيبو تيب كلمة أخرى للدلالة على الرسالة المكتوبة وهي (barua) وبالعودة إلى المعاجم السواحلية لم نتبين أي فرق بينهما فقد تتبادلان في الجملة الواحدة.

الرحلة إلى غرب بحيرة تانجانيقا: كاسونجو وأتيتيرا (٤٤ ـ ١١٨)

(٤٤) بقيت عشرين يوماً ثم ذهبت إلى باجامويو لأخلي كل الحمولة هناك، وواصلت مسيري. كان المتبقي من الحمولة يساوي ثلاثمائة والحمالون على أهبة الاستعداد. خلفت ورائي أخي، وكلفته بأن يرعى أعمالي إلى حين عودتي بعد السلام على السيد ماجد في دار السلام. كانت رحلتي موفقة وأمرت أخي بأن يتقدم وينتظرني في كويري (Kwere) لأنني سوف أذهب إلى زنجبار لوداع تاريا. تحرك أخي على مهل. وفي زنجبار بقيت ستة عشر يوماً لحضور زواج أولاد راشد العدواني حيث ألحّ علي تاريا بالبقاء. أخيراً استطعت الذهاب إلى باجامويو ومنها إلى كويري، ولم ألحق بأخي الذي انتظرني لعدة أيام.

(٤٥) تبعته والتقينا في أساجارا (Usagara). ذهبنا سوياً حتى حدود أوجوجو (Ugogo) حيث تفشى وباء الكوليرا. كانت وراءنا قافلة عبد الخير خادم حمد بن راشد بن سلوم[1] الخنجري

(١) في الأصل Slejum ولعلها خطأ مطبعي والصحيح ما أثبتناه.

وسيف بن سعد والي تابورة، في زيارته الأولى، وناصر بن حمد المسروري، في زيارته الأولى أيضاً كان حاملاً بعض البضاعة. عبر الخير - من جانب آخر - يحمل بضاعة عظيمة تخص سيده المقيم في تابورة. واصلوا جميعاً المسير عبد طريق ميزانزا (Mizanza).

(٤٦) أخذنا الطريق الرئيسي ولكن المؤونة التي اشتريناها من أساجارا أوشكت على الانتهاء، ولم نجد مؤونة في أجوجو (Ugogo) ولا في أي قرية من القرى التي مررنا بها. كنا في أشد الحاجة، ورجالنا يتساقطون كل يوم. عندما وصلنا آخر قرية بأوجوجو كان طريقها مقطوعاً بالمحاربين الذين قالوا لنا أننا ممنوعون من دخول القرية. وقالوا: «عودوا مستديرين حول القرية عبر الأدغال لتبلغوا مجوندا مكالي (Mgunda Mkali)، عودوا القهقرى وإذا ما دخلتم القرية فسوف نفتك بكم». وبما أنه أخي الأكبر سألته: «بماذا تشير يا محمد؟». فقال: «الرأي رأيك»، قلت له: «إذا ذهبنا عبر غابات مجوندا مكالي فإنها رحلة أحد عشر يوماً وليس لدينا سوى اليسير من الطعام وقد نهلك بالطاعون والمجاعة، لندخل القرية بالقوة فإذا ابتدأونا فسوف نرد عليهم». ووافقني على ذلك.

قررنا أن ندخل بالقوة عندها قال المحاربون: «ابقوا حيث أنتم وسوف نذهب لنستطلع رأي السلطان». قلنا لهم اذهبوا إلى السلطان. وبقينا ننتظر مدة ساعة ثم عادوا ليسمحوا لنا بأن نعسكر على النهر ولم يصرحوا لنا بدخول القرية أما طعامنا فسوف يُحضر لنا، ولكنه يتوجب علينا المغادرة بعد يومين اثنين. نزلنا على النهر

الذي كان منحسراً وقربنا بعض الآبار التي استسقينا منها. مكثنا يومين وخسرنا الكثير من الرجال، كان الوباء متفشياً.

رحلنا في الظلام لنبلغ قرية أخرى يتزعمها كينجي (Kinje) مات في تلك الليلة أكثر من سبعة من رجالنا. نظرنا في حجم البضاعة التي معنا ورأينا أن ندفن بعضاً منها. دفنا ما معنا من خرز وأساور ورصاص وطلقات ومجموعة من السلاسل ومدفعين كنت قد جلبتهما معي. أبقينا ما لا يمكن دفنه والسكر والبارود. غادرنا في الصباح الباكر لنصل بعد أقل من أربع ساعات إلى حدود مجوندا مكالي. أخذنا استراحة مدتها أربع ساعات مات خلالها ستة من الرجال. غادرنا الساعة الثامنة ليلاً ثم توقفنا في الأدغال بعد مسير قصير.

(٤٧) وصلنا تورا (Tora)، وقابلنا ناصر بن مسعود ود أحمد[١] حيث كان مقيماً هناك وهو صديق لحمد بن راشد بن سالمين الخنجري. ويبدو أن خادمه عبد الخير الذي كان يقود القافلة قد توفي، وجميع الحمولة تشتت خلال الطريق. ولم يبقَ حياً من تلك القافلة سوى ثلاثة أشخاص. رأينا منهم ناصر بن حمد المسروري والوالي سيف بن سعد وكانا بحالة مزرية. كنا أوفر حظاً فلم يبلغ عدد الهلكى الربع من جملتنا.

(٤٨) عندما بلغنا روبوجا (Rubuga) قدم والدي محمد بن جمعة لملاقاتنا ومعه بعض الأقارب. كانت هذه المرة الأولى التي أراه

---

(١) هكذا في الأصل.

خلالها بعد عودتي إلى أوروا متوجهاً إلى الساحل بعد حرب منيوا سيري، كنت عائداً آنذاك بلا بضاعة ولا سمعة. مضت سنوات عديدة لم أره خلالها.

غادرنا روبوجا متوجهين إلى تابورة لنصل إلى قريتنا أتورو، توفيت في هذا الزمن كاروندي ابنة فوندي كيرا وطلب مكاسيوا من والدي أن يتزوج ابنته، ولكن والدي رفض هذا العرض لأنه يريد الزواج من الابنة الأخرى لفوندي كيرا واسمها نياسو (Nyaso). استاء مكاسيوا من ذلك لأنه لا يريد أحداً من أبناء أخيه فهو على غير وفاق معهم. لم يبدِ أي اعتراض قوي وتزوج والدي من ابنة فوندي كيرا التي كانت في عمر [أختها] كاروندي. وجميع الأملاك - البشر والأشياء المملوكة - في إتورو الخاصة بكاروندي ونياسو أصبحت في ملك والدي.

(٤٩) أقمنا في إتورو أربعة عشر يوماً، وفي إحدى الأيام مر بجوارنا فيل فخرج إليه رجالي وقتلوه واقتلعوا منه العاج الذي وزناه فبلغ مائة وثمانين رطلاً. بعث إلينا السلطان مكاسيوا والوالي سيف بن سليمان اللمكي آمرين بتسليم العاج إليهم. فأجبت أن العاج يخصني ولن أتخلى عنه. هنا نشأ سوء التفاهم بيننا وأصبحت الحرب قاب قوسين. هم مصرون على أخذه وأنا مصر على الاحتفاظ به. قال والدي: «إنهم لن يتركوننا». أعلن السلطان والوالي حربنا وكنا على أتم الاستعداد لهم.

(٥٠) وفي يوم المنازلة بيننا داهمهم نجوني مافيتي (Ngoni Mafiti) لم يخض عرب تابورة حرباً قبل هذه الواقعة. وهذه هي

الأولى هذه السنة. برز نجوني من جانب نجومبي (Ngombe). جاء تلبية لطلب مشاما (Mshama)، ابن أخ مكاسيوا، الطامع في زعامة تابورة بدلاً عن عمه كما ينوي قتله أيضاً. إن تفجر هذه الحرب جعل السلطان مكاسيوا والوالي ابن سليمان مأخوذين بهذه المباغتة وفي أمَسّ الحاجة إلى مساعدتنا. أرسلوا إلينا بخبر بروز نجوني وأن مجموعة من مناصريهم من كويهاري (Kwihare) يقودهم عبد الله بن نصيب قد توجهوا لملاقاتهم. أرسلنا إلى بعض مناصرينا في تابورة أن يأتونا بأقصى سرعة ممكنة. قرعنا طبول الحرب وغادرنا مباشرة إلى كويهاري، وهي على مسافة قصيرة من إتورو. وبعد ساعتين وجدنا الوالي سعيد بن سالم[١] والسلطان مكاسيوا اللذين أخبرانا أن نسرع لنجدة عبد الله بن نصيب. لحقنا بعبد الله في نجومبي وهو في حال لا يحسد عليه، فقد أحاطوا به وقتلوا من جيشه خمسين من شباب العبيد وأكثر من مائة من الأوغنديين الذين أرسلهم السلطان موتيسا (Mutesa) لمناصرة الشيخ بن نصيب الموتافي[٢]، وكان موتيسا قد بعث إليه بحوائج من قبل السيد ماجد إلى حيث يقيم في أوغندا (Uganda). وكذلك كان موتيسا قد أحضر كميات عظيمة من العاج لإرسالها إلى السيد ماجد كما بعث إلى الشيخ ابن نصيب لينال هداياه. وعند وصولنا وجدنا أن الجميع قد قتل وقد أخذ ناجوني جميع الماشية.

---

(١) هكذا في الأصل وقد ذكره سابقاً أنه سعيد بن سليمان، ولعل سالم جده.
(٢) هكذا في الأصل.

(٥١) في طريق العودة لقينا بعض المحاربين من تابورة وعبد الله بن نصيب فقلنا لهم: «لنلحق بهم». فلم يرد علينا أحد. لقد تجاهلنا هؤلاء الناس وكأننا بهائم. قلت: «اذهبوا، سوف نلحق بهم بأنفسنا». بدأ الناس يعودون إلى كويهاري وأهالي تابورة عادوا إلى بلادهم، بينما انشغلنا نحن بوضع خطط المطاردة مع وصولنا إلى كويهاري. التفوا جميعاً معاً وذهبنا حتى بلغنا مسانجي (Msange) أعالي نجومبي. هنا غيّر آخرون آراءهم وعادوا بينما تابعت تقدمي ومعي سعيد بن حبيب العفيفي إلى مفوتو (Mfutu) حيث يسكن سليمان بن صالح النبهاني، واحد من أقاربي. هنا كانت حدود أونيانيامبي. نمنا ليلة واحدة قبل مطاردة ناجوني على ضفاف نهر نجومبي، ولكنهم كانوا قد عبروه. عدلنا عن خطتنا وعدنا إلى إتورو.

(٥٢) أعددنا أنفسنا للذهاب إلى إتورو ورويمبا ولكن أهالي تابورة لم يتركوا لنا هذا الخيار، قالوا: «ترقبوا للحرب فعندما يهدأ الجميع سوف يعود نجوني». جميع الموجودين من العرب والنياموزي مضطربون فليس لديهم خبرة بالحرب. بقينا شهرين ولم تظهر أيُّ بوادر لنجوني. أرسلنا جمعة بن سيف على رأس قافلة إلى إتاوا (Itawa) بينما بقينا مدة شهر آخر فلم تبد أي بوادر للحرب هنا غادر أخي ومعه كثير من الرجال والبضاعة. ولم يبقَ سواي وسعيد بن علي بن منصور الهنائي وقليل من الحمولة فأكثرها كانت مع أخي. بعثنا إلى البضاعة ـ من الخرز والعقود ـ الموجودة في أوجوجو فجيء بها وكان الفرق من ستة إلى ثمانية في الفرسيلة الواحدة مقارنة بقيمتها عندما دفنت في الرمال.

(٥٣) وجدنا أن المدة قد طالت منذ أن بعثنا ببضاعتنا فأخبرنا أهل تابورة بعزمنا وحاولوا ثنينا عن الرحيل في انتظار الحرب فلم نرضخ وتركنا معهم عدداً من الرجال ـ العدد الأكبر من رجالنا غادر مع محمد بن مسعود وجمعة بن سيف ـ هم سعيد بن علي الهنائي وسعيد بن سليمان المغيري وعبد الله بن حمد بن سعيد البوسعيدي وعلي بن محمد الهنائي ومعهم عدد من الشباب من ساحل مريما ـ حوالي خمسة عشر ـ بالإضافة إلى سليمان بن سيف الإسماعيلي.

بلغنا أوجالا (Ugalla) القريبة من أكونونجو (Ukonongo) أرض السلطان ريوفا (Riova) المتمتع بقوة شخصية ونفوذ وهو الأخ الأصغر للزعيم الحقيقي تاكا (Taka). كان ريوفا متعجرفاً وغادراً في تعامله. أقام لنا معسكراً خارج المدينة في موقع يبعد خمس عشرة دقيقة مشياً، والمعسكر يقع قرب مجموعة من الآبار.

(٥٤) حينما تغادر أوجالا متجهاً إلى أوكونونجو أرض السيمبا[١] فلن تجد أية قرية في طريقك. السيمبا (Simba) هذا أخ السلطان الراحل لتابورة منيوا سيرا. فمع وفاة فوني كيرا صارت الزعامة لمنيوا سيرا حتى تمرد فعزلناه وجعلنا مكانه مكاسيوا. وبوفاة الأخير ـ مات في نجوجو ـ فر السيمبا إلى أوكونونجو موهماً السكان أنه أصبح هو الزعيم.

(٥٥) ولما وصلنا أرض السيمبا رأينا أن نشتري لرجالنا كميات كثيرة من الطعام تكفي لمدة ستة إلى سبعة أيام لأن المؤونة غالية

---

(١) معناها الأسد.

هنا في الأرض. اشترط علينا السلطان أن ندفع له خمس بقرات ومائة قطعة من القماش حتى يصرِّح لنا بشراء ما نريد. فأعطيناه ما طلب واشترينا كميات عظيمة من الذرة المطحونة من العديد من القرى المجاورة، وحتى من قرية السلطان نفسه التي كانت محكمة التحصين بخندق يحيط بها.

(٥٦) في الصباح بعث ريوفا أحد رجاله يدعونا لمقابلته في قريته. حوالي الساعة الثالثة صباحاً ذهبت ومعي خمسة عشر رجلاً مسلحين بالبنادق المشحونة والرصاص الإضافي. وفجأة وجدنا في الطريق واحداً من صغار عبيدنا اسمه ياقوت، وهو رقيق لعلي بن محمد بن علي الهنائي. قال لنا إنه اعتدي عليه وبُعثر ما معه من ذرة دون أي سبب. قلت له: «لا تعمل من هذا قضية كبيرة، وسوف أعطيك ذرة بدلاً. أنت تعرف أننا دفعنا الكثير لهذا الزعيم المتمرد ولا نريد إثارته. إنه عدواني وحتى ميرامبو لم يقوَ على مناوشته عندما مرّ هنا». اقتنع ياقوت بما قلت وقبل أن ينتظرنا حتى نعود ونعطيه نصيبه من الذرة وتوجه إلى المعسكر، بينما تابعنا سيرنا لملاقاة السلطان. دخلنا قريته وسألنا عنه فأخذونا إلى منزله. اقترح السلطان علينا الذهاب إلى حيث تسكن زوجته الأساسية حيث دخل وبقينا ننتظره. فجأة ظهر الغلام، الذي بعثرت ذرته، ثانية وهو متمنطق سلاحه. ناديته وضربته سبعة سياط وما هي إلا برهة من الزمن حتى تجمع السكان وهم يصرخون: «ها هو الغلام صاحب الذرة، سلّح نفسه وهو ينوي حربنا، فلنحاربه إذن». ولم يكمل المتحدث كلامه حتى فتح علينا الرصاص والسهام لا تزال منهمرة

علينا. أمسكت به، وقلت له: «اصرخ في رجالك أن يتوقفوا». وجدت أننا أمام موت محقق فأمرت بإطلاق الرصاص عليه. تركته وكان متأثراً بطلقة في ظهره فسقط طريحاً.

(٥٧) عندما رأوا سقوط زعيمهم هربوا في كل اتجاه حتى لم يبقَ شخص واحد والواقع أن القرية كلها كانت مخمورة بجعة الذرة. لزمنا الحذر الشديد فالقرية شاسعة وتتكون من عدة مناطق. ذهبنا إلى البوابة الرئيسية للقرية وهي التي دخلنا منها عند مجيئنا كما إنها مقابلة لمعسكرنا، علماً أنه للقرية ستة أبواب.

بحثنا عن اثنين من رجالنا لم نجدهما وغلب على ظننا أنهما قتلا. وقفنا خارج البوابة مقابلين الطريق المتجهة إلى معسكرنا، وفجأة رأينا علمنا يرفرف مرفوعاً بأيدي رجالنا. سألنا سالم بن سيف الإسماعيلي وسليمان وكاوروجيو (Karojeo). رجل من لوفي - فيما إذا كانوا قد وصلوا إلى المعسكر، فأجابوا أنهم جاءوا بست أسيرات وأنهن وراءهم في الطريق.

(٥٨) توجهنا سوية إلى القرية ولم نجد هناك رجلاً واحداً بل ما يبلغ ستمائة امرأة معهن من البضاعة والعاج ما يقارب عشرين حمولة وزنتها ستاً وعشرون فرسيلة. رأينا واحدة من جوارينا قتلتْ ضرباً، وزوجها أحد عبيدي الخصوصيين يلقب بانجورا (Bangura) ومعناه الأسد وكان من الشجاعة بمكان. عندما حضر ورأى مقتل زوجته قال متوعداً: «عندما تحين ساعة الحرب فسأكون أول المسارعين إلى الموت». بعثنا بعض الرجال للبحث عن سعيد بن علي بن منصور الهنائي وعن بقية رجالنا وبضاعتنا داخل هذه القرية

المندحرة. عادوا بسلام، الرجال والبضاعة. كنا ننتظر أيضاً الحمالين من قبيلة نياموزيزي ومعهم بعض عبيدنا الذين ذهبوا لطحن الذرة. يبلغ عدد القرى المجاورة لهذه القرية حوالى المائة. بعد انتظار قصير عاد بين خمسة عشر إلى عشرين من الحمالين. خرجت بنفسي في صباح اليوم التالي للبحث في القرى المجاورة ومع حلول الظهر كنت قد جمعت كل من تفرق من الحمالين في القرى القريبة. لم نجد أحداً من السكان في تلك القرى بل وجدنا حمالينا وبعض عبيدنا. رأينا سبعة منهم قد لاقوا حتفهم وأربعة عادوا معنا مثخنين بجراحهم. ستون آخرون لم يعودوا بعدُ، وكانت وجهة نظرنا أنهم لم يُقتلوا ولو كانوا مقتولين لكنا وجدنا جثثهم، والأغلب أنهم عادوا إلى تابورة.

(٥٩) وصلنا أجالا حيث لا تبعد تابورة عن القاصد مسيرة خمسة أيام أو أقل، ولكننا لم نكن قادرين على مفارقة موقعنا لعدم كفاية الحمالين لنقل بضاعتنا العظيمة. مكثنا هناك وقررنا محاربة أخ السلطان تاكا. ولكن وبعد أن كنا على أهبة الاستعداد للتحرك إليه قال سعيد بن علي: «ليس من الحكمة أن تهجموا تاركين كل بضاعتكم في رعاية شخصي الوحيد فقد يحدث هجوم معاكس. ثم إن السلاح الذي معكم لا يزيد عن مائة بندقية». عدلنا عن رأينا، وبقينا هناك سبعة أيام وفي فجر اليوم الثامن كانت طلائع هجوم بدأت في الظهور من قبل سكان أجالا وواكونونجو. فأسرع بانجورا ـ مدفوعاً للثأر من قتلة زوجته ـ بمفرده فعاجلوه بالموت. وكانت المواجهة كما توقع سعيد بن علي الذي ظل بالداخل. حاربناهم

حتى كسرنا شوكتهم فعادوا القهقرى. أردنا الرحيل بعد المعركة مباشرة ولكن الباقين من نياموزي وبعض عبيدنا تأخروا مدة أربع ساعات. قتل من الأعداء حوالي سبعين بينما لم تزد خسائرنا عن أربعة قتلى وستة جرحى. الآن عادت قواتنا جميعها.

(٦٠) عقب أربعة أيام ظهر لنا مجموعة من الناس اعتقدنا في البداية أنهم سيهاجموننا. بعد لأي، ظهروا جلياً كانوا حوالي خمسين، منهم عشرون من البلوش وثلاثون من العبيد جاءوا من تابورة بخط من الوالي سعيد بن سالم اللمكي والشيخ ابن نصيب، رسول السيد ماجد بن سعيد إلى أوغندا. كان ابن نصيب أوسع نفوذاً حتى من الوالي نفسه الذي لا يقطع أمراً دون مشورته. كما كانوا يحملون خطاً من والدي محمد بن جمعة يخبرنا أنه سمع عن حربنا إذ أخبره الحمالون بذلك وأن السلطان تاكا قصدهم طالباً الحماية وملحاً على إحلال السلام وأن تنسى العداوات القديمة. كان السلطان خائفاً من العودة إلى قريته التي تركناها له. وفي نهاية رسالتهم ذكروا أنهم في طريقهم إلينا.

(٦١) بعد ثلاثة أو أربعة أيام جاء الشيخ ابن نصيب وأخوه عبد الله بن نصيب يرافقهم والدي وناصر بن خميس وهلال بن ماجد وسعيد بن محمد المزروعي وحشد من العرب يقارب خمسين شاباً معهم عبيدهم. يبلغ عددهم جميعاً خمسمائة رجل مسلحين بالبنادق. وجعلوا والدي يسير في مقدمتهم. أما ابن نصيب وحاشيته فلم يدخلوا القرية، وقالوا: «لن ندخل القرية ولن نأكل طعامك حتى تعدنا بتحقيق مطالبنا دون تأخير». قلت: «ادخلوا ومطالبكم مجابة». دخلوا وطلبوا إخلاء سراح النساء اللواتي أخذن أسيرات.

قلت: «حسن جداً. ولكن ماذا عن تعويض رجالنا القتلى؟». فوافقوا على دفع التعويض فأعطيتهم حشداً من الأسرى وفي المقابل أعطوني ما يعادل خمسة عشر فراسلة من العاج. وعلى هذا انتهت القضية بيننا. عاد جميع الحمالين النياموزيين بمكافآتهم كما غادرنا تاركين أقاربنا هناك. ذهبنا حتى بلغنا أوكونونجو وكاوندي (Kawende)، ثم سلكنا الطريق المؤدية إلى أفيبا (Ufipa) حيث السلطان هناك هو كارومبوي (Karombwe). هناك التقيت أخي ومعه آخرون من الذين واصلوا خط سيرهم. وعند حدود أفيبا وجد أخي مؤونة كافية من الطعام فنزل هناك لانتظاري. أما جمعة بن سيف بن جمعة فقد توجه إلى إتاوا لدى السلطان السامو وذلك في وقت أسبق.

(٦٢) بلغنا مخيم أخي وأقمنا به ستة أيام لتدبير المؤونة حيث كنا نعاني من نقص في الطعام. ثم أخذنا طريق أفيبا نفسه سائرين بمحاذاة بحيرة تانجانيقا. وهنا قاسينا الأمرَّين لأن الطريق جبلية، فكنا نتعذب صعوداً ونزولاً حتى وصلنا أورونجو مع نفاد المؤونة. لقد حلت بنا مجاعة، فلدينا قافلة بها أكثر من أربعة آلاف شخص. عقدنا اجتماعاً حضره الجميع عدا جمعة بن سيف الذي غادر ومعه خمسمائة أو ستمائة رجل. لقد قاسينا حتى نصل إلى إتاوا.

(٦٣) بلغنا حدود إتاوا وهي قرية (السلطان) مكورا (Mkura) ابن السامو. تضم هذه المنطقة العديد من القرى وبها تجارة ناجحة للمهوجو أو الكاسافا[١] فأصنافها عديدة وجودتها عالية، ينقعها

(١) هي شجرة تؤكل جذورها، وتسمى بالسواحلية مهوجو (Mhogo) والجاف من جذورها=

السكان في الماء مدة ستة أيام إلى سبعة أيام حتى تتخمر ثم يجففونها لتصير طيبة المذاق لاذعة الطعم. وقبل أن تجف تماماً يفضل السكان أن يحمصوها فوق نار هادئة حتى تذهب عنها بعض الروائح غير المستساغة. وهي عندما تكون قريبة من الجفاف التام تجدها طيبة الرائحة.

وفور وصولنا بدأ الحمالون النياموزيون يمضغون اللحم النيء لأنهم لم يأكلوا شيئاً منذ أيام عديدة. ومع صباح اليوم التالي كان هناك ما يقارب السبعمائة حمال يتقيأون ويعانون من الإسهال. كانوا يتقيأون قطعاً بيضاء كالورق. مات أربعة منهم. وصل في هذه الأثناء جمعة بن سيف الذي كان مع السامو وقال لي: «بسرعة، اصنعوا لهم حساء بالفلفل والزنجبيل واجعلوهم يشربوه». وكانت الأغنام متوفرة بالطبع فجمعنا كل ما كان قليل الشحم وطبخنا لهم مرق اللحم وأضفنا إليه الفلفل والزنجبيل. أعطيناه لأولئك الذين كانوا في حالة حرجة وما لبثوا بعد أن شربوه حتى تحسنت صحتهم ولكنهم ظلوا منهكي القوى مدة ثلاثة أيام. كنت أعطيهم كل يوم هذه الحمية. بعد أن شفوا ذهبنا جميعاً لملاقاة السلطان فقابل أقاربي ولم يقبل أن يقابلني بعد المعركة التي هزمته فيها.

(٦٤) مع وصوله كان جمعة بن سيف قد حقق في تجارته

=يسى كوبا (Kopa) وللأوراق اسم آخر هو كسانفو (Kisamvu). وورد في المورد في ترجمة الكاسافا (Cassava). المَنيهوت: أ ـ نبات يستخرج من جذوره نشاء مغذ. ب ـ جذور المنيهوت أو نشاؤه. ولعل كلمة المنيهوت أكثر غرابة لدى القارئ العربي من المهوجو أو الكاسافا وهما أخف في النطق.

ثلاثمائة فراسلة من العاج ولكنه ادعى أنه ليس لديه شيء منه. وفي الواقع فإنه جاء بأربعين حمولة وأكثر بقليل عن خمسة وستين فراسلة. كنت أراقبه وأفكر قائلاً: «إنه لا يريدنا أن نبقى هنا». قال لي: «إن العاج كله انتهى ولم يبقَ إلا ما خصصته لك». كان في ذلك الوقت الكثير من الأفيال حول إتاوا فذهب رجالنا مع الغروب وعادوا مع الفجر بحمولة عشرين. وكان الشباب منهم متحمسين للصيد وقتل الجواميس بشكل أكبر. قتلوا أعداداً لا تحصى.

(٦٥) أقمت بأرض السامو مدة خمسة وعشرين يوماً عزمت بعدها على الذهاب إلى رويمبا حيث يسكن أصدقائي موامبا (Mwamba) وكيتميكارو (Kitimikaro) وشانزا (Shanza) وهم من زعماء رويمبا. هؤلاء الثلاثة هم الأهم وهناك غيرهم من أبنائهم وعمومتهم الذين يديرون منطقة أبيسا (Ubisa) بأسرها. أعظم بهم من قوم.

سرت حتى وصلت حدود أرض موامبا فأعطاني ثلاثين حمولة. وفي المقابل أعطيته بعض البضاعة وزدته أخرى مما قيمته مائة قرن أو أكثر بقليل. ذهبت بعد ذلك إلى كيتميكارو فأعطاني خمس عشرة حمولة من العاج مقابل بعض البضاعة ثم زدته ما يُقَيَّم بستين قرناً. وأخيراً قصدت السلطان شانزا الذي أعطاني عشر حمولات من العاج مقابل هدايا بسيطة وزيادة بضاعة توازي خمسين قرناً. ثم عدت إلى السامو. وجدت في طريق العودة أن رجالي كانوا قد قتلوا أفيالاً كثيرة غنموا منها أربعمائة فراسلة من العاج.

(٦٦) كانت رحلتي الأخيرة بصحبة أربعة من العبيد الذين

اشتريتهم من عبد السلام خادم النوخذة[1] هلال. في تلك الأيام شراء العبيد لا يكلف كثيراً. امتدحهم عبد السلام لخميس ود المطوع قائلاً: «لماذا لا تشتري هؤلاء العبيد؟ هم من ياوو (Yao) قناصو أفيال، لم أكن لأبيعهم لولا الحاجة. خذهم بمائة دولار كل واحد منهم بخمسة وعشرين دولاراً». قال خميس ود المطوع إنه لا يملك المال ولكنه أتى بهم إلي ونصحني بشرائهم. أعطيته مائة دولار. بعد فترة هرب واحد منهم في نجوجو وبقي الثلاثة. الأول اسمه عيسى والثاني اسمه العقل مال والثالث اسمه تقادير.

(٦٧) بعودتي من رويمبا وجدت أنهم حصلوا على مائة فراسلة من العاج. ناديت أخي وقلت له: «انظر، إننا نملك بضاعة عظيمة والكثير من الثياب والخرز تقارل ألف فراسلة. ابق هنا مع بضاعتنا سوياً ولا تقلق على الثياب فسوف تبيعها هنا في رويمبا وأما الخرز فهي مطلوبة في أوروا».

(٦٨) عزمت على السفر مع بقاء بضاعتنا في إتاوا بعهدة أخي محمد بن مسعود وأبنائنا. أخذت مائة وخمسين بندقية وتركت معه أكثر بكثير مما أخذت. كما أخذت جميع الخرز بما فيه ما يخص أخي وثمانمائة من الحمالين النياموزيين. بينما أخذ سعيد بن أحمد بن منصور[2] جميع أمواله وبضاعته ولم يرضَ أن يترك شيئاً. قررنا التوجه إلى أوروا لنأخذ طريق رواندا الموصل إلى كازيمبي.

---

(١) استعمل في الأصل المفردة نفسها.

(٢) في الأصل منصوب مكان منصور، ولعلها خطأ طباعي.

بعد تسعة أيام تقريباً جاءتنا الأخبار من قبل أخي أنه اشترى ما يقارب مائة قرن من السامو. كان أخي خائفاً من أن أتأخر في العودة. تقدمنا قليلاً في سيرنا تحت المطر. وعندما بلغنا رواندا أرض كازمبي وجدنا نهر كارونجوزي (Karongozi) الفاصل بين أراضي السامو وكابويري من جهة ومقاطعة رواندا من جهة أخرى. من المستحيل عبور هذا النهر أثناء نزول الأمطار وإلا لغرق من حاول ذلك. عبر البعض إلى رواندا لشراء طعام لنا، فاعتدي عليهم، وقتل أربعة من رجالنا وسلبت ملابسهم وما معهم من خرز. قلت لسعيد بن الهنائي: «بماذا تشير؟» قال: «دعنا نبعث بعضاً من رجالنا للاستطلاع، فلماذا يقتلون رجالنا وهم من أتباع كازمبي؟». عندما عاد المبعوثون وكانوا قد سألوا عن سبب مقتل رجالنا، فقيل لهم: «لقد هجمنا عليهم بقوة وإذا كان [أي تيبو تيب ومن معه] يريدون المنازلة فليأتوا». في هذا الوقت كانت زعامة المنطقة في قبضة السامو وكازمبي وبما أننا هزمنا السامو شعر هؤلاء وهم أتباع كازيمبي أننا لن نتردد عن الهجوم عليهم لذا فهم يريدون أن يبعدونا عن المنطقة. ولكن سعيد بن علي كان حازماً فبعد أن سمع جواب المبعوثين قال لي: «فلنحاربهم». بعثنا لإخبار محمد بن مسعود الوردي الذي بعث أولادنا والأتباع. كنَّا، جمعة بن سيف وأنا القادة وهو تحت إمرتي لأنني أكبر منه فعندما ولد كنت طالباً في المدرسة.

(٦٩) حاربنا مدة شهر كامل وصلنا قرية كازمبي نفسه فقتلناه وغنمنا شيئاً عظيماً من المواد والبنادق والعاج وأسرنا عدداً لا

يحصى من رجاله. واصلنا في اتجاه أوروا عن طريق مويري. بلغنا أرض السلطان مبويتو (Mpweto) ثم سرنا بمحاذاة بحيرة مويرو حتى بلغنا أقصاها.

(٧٠) وجدنا نهر كونجو (Congo) مدّه بالغٌ لوانجوا (Luangwa). مررنا بواروسي (Warsi) أسفل مروزي كاتانجا (Morzi Katanga) وداخل بحيرة مويرو. إن المكان الذي عبرنا النهر منه هو المكان الذي يتفرع فيه عن البحيرة نهر يتوجه إلى مبويتو. عبرنا بالزوارق وكانت علامات فيضان النهر بادية على الضفاف. هؤلاء السكان قليلو الحيلة، وقراهم صغيرة جداً وهم يدعون واهيمبا (Wahemba) هم عبيد لفواكا (Vuaka) ذلك لأنهم يستعملون التبغ بكثرة مضغاً وتدخيناً. وبالمقارنة فإنه بين الواروروا ـ بشكل خاص ـ يعتبر التدخين والمضغ غير مقبولين اجتماعياً. كان الواروروا سابقاً أهل قوة وبطش.

(٧١) واصلنا سيرنا حتى بلغنا أرضاً تسمى أريموتو (Urimoto) حيث السكان هناك أكثر فقراً من الواروروا. قراهم الصغيرة جداً بنيت أسفل الكهوف وبها آبار ومياه جارية. والمدخل مساحته اثنا عشر قدماً ـ من الجانب الأسفل ـ بالإضافة إلى مدخلين آخرين. دخلنا لنلقي نظرة حاملين شموعاً. عدنا، سعيد بن علي وأنا بينما واصل خالي والبقية طريقهم ليخرجوا من البوابة الثانية في الجانب الأعلى. سمع القاطنون أن حرباً مع الواروروا قد قامت ـ فيما سبق كانوا أصدقاء ـ فهربوا إلى داخل قراهم آخذين معهم الطعام أما الماء فلديهم الكفاية منه حيث لديهم آبار داخلية. انحسرت رهبة الحرب فعاد السكان إلى الخارج فالواروروا ليس لديهم بنادق.

بعد مغادرتنا هذا المكان قرر مسيري (Msiri) سلطان كاتانجا (Katanga) الهجوم على هؤلاء القوم الذين تدفقوا إلى داخل مخابئهم. فجمع مسيري حطباً وأشعل القرية ناراً، الأمر الذي دفع السكان إلى الخروج مستسلمين ليصبحوا لقمة سهلة بيد مسيري.

(٧٢) في ذلك الحين كنا قد غادرنا نهائياً تلك المنطقة لنصل إلى أوروا إلى قرية كاجومبي. واسمه الآخر هو شاكوما (Chakuma)[١] وهو اسم دال على وحشيته. إنه سلطان قوي ولديه أتباع كثيرون. ويقتضي النظام ـ آنذاك ـ أنك إذا وصلت أروروا حاملاً بضاعة فإنه غير مسموح لك بالتقدم إلى داخل القرية وعليك أن تبقى بعيداً حيث يأتيك بالعاج السكان أنفسهم. وعليك دفع ضريبة تصل إلى الربع وقد تزيد قليلاً على كل قطعة من العاج. تذهب هذه الضريبة إلى السلطان. وعندما تذهب إليه فإن حرسه يدفعونك ضريبة على كل قطعة من العاج تشتريها أو تبيعها له. ليس من المسموح بأي حال من الأحوال للعرب أن يذهبوا إلى أي مكان مجاور وعلى الواحد منهم أن يلزم مكانه حتى يبيع بضاعته مهما طالت المدة ولو مكث عشر سنين. رأينا أن زبائننا لن يشتروا الكميات العظيمة التي لدينا من الخرز. وهم يريدون الخرج إلا أنهم ليس لديهم إلا القليل من العاج. هنا ـ لدى الواروروا ـ نحتاج لنحصل على قطعة واحدة من العاج إلى عشرة أيام وحتى إلى خمسة عشر يوماً من المفاوضات في بعض الأحيان. بعد شهر كامل

(١) لعلها اسم الفاعل من الفعل (Chakua) التي من معانيها المضغ والافتراس. ويكون معنى اللقب هو المفترس.

كنا قد حصلنا على ست أو سبع قطع من العاج، وبالكثير قد تصل إلى عشر صغاراً وكباراً. إنها كارثة، سمعنا في هذا الحين أنه يوجد في مرونجو الخاصة بتامبوي ومرونجو التابعة لكازانجا (Kasanga) عاج وفير ولكنهم خائفون من إحضاره إلى هنا. هذا الرجل ـ كاجومبي ـ اتباعه سيئون وهو يفرض ضرائب كبيرة. مكثنا هناك ما يزيد على العام ومحصولنا من العاج لا يزداد إلا ببطء. لقد قررنا المغادرة.

(٧٣) ظهر لنا قبيل المغادرة رجال من جهة كاتانجا من طرف السلطان مسيري حاملين إليّ اثنتي عشرة قطعة من العاج على سبيل الهدية. سمع مسيري أننا ننوي الهجوم عليه ـ وفي الواقع ليس لدينا أي مخطط لذلك ـ لقد كان خائفاً بعد أن ظهرنا على السامو ورواندا كازمبي فبعث إلينا بهذه الهدايا وبرسالة على لسان مبعوثيه قائلاً: «لقد سمعت أن تيبو تيب ينوي الهجوم علي ولكنني لا أنازعه في شيء». فأجبتهم: «هذا صحيح. وقد بلغني أنه رجل متعجرف يعتدي على الناس دون مبرر وعليه بالطبع لا بد من تأديبه إلا إذا أرسل إليَّ عشرين قطعة من العاج فوق ما أرسل». قال المبعوثون: «طب نفساً، سوف نأتيك بما طلبت». قلت لهم: «أريدها الآن فأنا متوجه إلى مرونجو تامبوي». قالوا: «وهل كاجومبي (Kajumbe) يأذن لك بالمغادرة؟» قلت لهم: «إن لم يفعل سوف أحاربه. فليس هناك أي سبب لحصارنا هنا، ليس لديه عاج والواروا لن يحضروا ما معهم إلى هنا لأنه يفرض ضريبة كبيرة». غادر المبعوثون من قبل مسيري وبعد ثلاثة أيام طلبت السماح لي بالمغادرة فرفض طلبي.

غادرنا بالقوة بعد حرب دامت ساعة أو أكثر حتى تشتت أتباع السلطان بين قتيل وأسير. وفي اليوم الثاني بعث ببعض من رجاله طالباً الأمان فضمنا له ذلك. ثم إنه بعث إلينا تسع قطع من العاج فأعدنا له الأسرى وغادرنا بسلام.

(٧٤) سرنا حتى بلغنا السلطان مزيكا أورووا (Mseka Urua) وهو على مقربة من كاجومبي. سألونا في اليوم الثاني: «أين مقصدكم؟»، فأجبت: «مقصدنا من يوفر لنا العاج الذي نريد». بقينا هناك يومين آخرين جاء خلالهما عشرة من الواروروا ومعهم ست قطع من العاج وإذا ما أردنا المزيد فعلينا التوجه إلى سلطانهم. سألناهم: «رجال من أنتم؟». قالوا: «نحن من قبل تامبوي، وهو سلطاننا». وافقنا على مصاحبتهم فتقدم اثنان منهم بقي الآخرون بصحبتنا. في صباح اليوم التالي غادرنا جميعاً لنقطع الرحلة في يومين. وفي اليوم الثالث قال لنا هؤلاء الرجال: «هنا طريقان، أحدهما تسير عبر الغابة حيث لا قرى هناك والمياه غير صالحة للاستعمال ولكنها خالية من المشاكل». سألتهم: «ما سبب المشاكل في الطريق الأخرى؟». وكانت إجابتهم أنها كذلك بسبب المشاكل بين الأخوين مورنجو تامبوي ومورنجو كازنجا اللذين كانا وثيقي الصلة وورثا الزعامة عن والدهما ثم حدث بينهما شقاق وحرب. فهرب الخاسر إلى الزعامات المجاورة حيث مكث هناك مع أتباعه مجردين من كل شيء.

تقوم معيشتهم على الاصطياد من البحيرة واصطياد الأفيال. وهم يصيدونها من زوارقهم في البحيرة لذا فلديهم كميات من العاج.

(٧٥) حجم هذه البحيرة نصف أو ثلث بحيرة تانجانيقا أوجيجي. هنا يلتقي القادمون من مختلف مناطق أوروا. يحمل بعضهم بضاعة وبعضهم خرزاً وأساور ولا يزال البعض يأتي بنعاج وعبيد وثياب كثياب المدغشقر التي تكشف ست أو سبع بوصات في الطول. كانت قرن الجاموس بمقام وحدة تبادل في هذا الوقت. يحضر بعضهم بضاعة وزيت النارجيل لشراء سمك، الذي يتجمع لشرائه أكثر من خمسة آلاف إلى ستة آلاف. يجففه بعضهم بالنار ثم يأخذونه إلى بيوتهم لاستعماله في المقبلات، بينما يعاود البعض الآخر بيعه. يقبل بعض الناس من مناطق بعيدة جداً مثل إراندي (Irandi) المكان الذي تصنع فيه الملابس المذكورة سابقاً. وهم يقايضون السمك بالعبيد وحتى بالعاج. إنهم تجار عظماء هؤلاء الواروا. كل سلطان منهم يحقق ثروة ضخمة من فرض الضرائب. لم أرَ في حياتي كميات عظيمة من السمك كالتي رأيت هنا. تذهب في كل مساء مئات الزوارق ولا تعود إلا في الصباح التالي. على كل زورق رجلان، الأول في المقدمة والآخر في المؤخرة فيملآن الزورق من أوله إلى آخره ومن أسفله إلى أعلاه بالسمك. وسمكهم جيد ورخيص. الصغير منها يساوي فنجاناً من الخرز أما الكبير فلا يزيد على سبعة أو عشرة فناجين. وهم بهذا يحصلون على ثروة عظيمة من الضرائب على السمك والعاج. وكما ذكرنا فهم يصيدون الأفيال التي حول البحيرة، فيذهبون إلى الغابات وعندما يرون شيئاً منها يلجئونها إلى البحيرة حيث ينتظرونها على زوارقهم ويقتلونها عندما تقترب. السلطان هنا هو مورنجو تامبوي (Mrongo Tambwe)

فبعد هزيمته على يد مورنجو كاسانجا (Mrongo Kasanga) أصبح هنا حاكماً مرة ثانية.

(٧٦) عندما جاؤونا، كان رجال مورونِدو تامبوي يحملون إلينا العاج. وقبيل أن نصل حدود أراضيهم قالوا لنا: «لنسلك الدرب الأسلم حتى وإن كانت عبر الغابات وعسيرة، علينا أن نظل بلا طعام أو ماء مدة رحلتنا وفي الصباح التالي سوف نصل إلى القرية. ولكننا إذا سلكنا طريق القرية فلن يسمح لنا بالمرور للوصول إلى قريتنا». كانوا يعتقدون أننا سنقتل وقلنا لهم: «أعطونا رجلين ليرشدانا الطريق، سوف نموه عليهم أننا عرب، وسيروا أنتم في طريقكم وأخبروا مورونجو تامبوي أننا سنصل بمشيئة الله فلا يقلق علينا». ذهبوا في طريقهم وغادرنا أيضاً ومعنا الدليلان.

(٧٧) بدأنا رحلتنا وبعد ست ساعات توقفنا على مشارف القرى حيث بتنا ليلتنا هناك. وفي الصباح غادرنا لنسير وسط القرى. كان السلطان قرب البحيرة ويستغرق السير إليه ست ساعات. قراهم كبيرة جداً ومتصل بعضها ببعض ولكل قرية مخازن تقيم فيها أعداد كبيرة من البشر وهي مجهزة بالمؤونة والطعام. استرحنا حتى الظهر عندما برز إلينا رجال مورنجو كازنجا وقالوا لنا: «عليكم مغادرة هذا المكان غداً لملاقاة السلطان، وهذه أوامره». قلنا لهم: «نحن لسنا من تظنون. وقصدنا الذهاب إلى مورونجو تامبوي». قالوا: «لقد سحقناه في الحرب وهو الآن يتردد في الغابات والأدغال. لا تغامروا بالذهاب إليه وإلا سوف نهاجمكم ونسلب كل ما لديكم» قلنا لهم: «هذا يكفي».

(٧٨) جاءوا في اليوم التالي فقلنا لهم: «سوف نذهب غداً إلى مورونجو تامبوي». وفي وقت الظهر جاء بعض رجال الواروا إلى الآبار فوجدوا بعضاً من رجالنا هناك فسرقوا ملابسهم وأحذيتهم. جاءوا وأخبرونا بما حدث. اخترت بعض الرجال للتوجه إلى اللصوص ولكن سعيد بن علي بن منصور الهنائي قال لي: «لا تهتم بما حدث فغداً سوف نبعث أحداً إلى السلطان لنستطلع الأمر». ولكننا في المساء سمعنا طبول الحرب تقرع فقال الدليلان اللذان معنا: «إنه إعلان للحرب صباح غد». وفي الصباح رفعنا الأحمال وضببنا الخيام. ذهب بعض رجالنا للاستقاء ولكنهم عادوا مهرولين، فقد أصيب اثنان منهم بسهام مات أحدهما والآخر بحالة جيدة. قرعنا الطبول إيذاناً بالحرب وذهب رجالنا يتقدمهم النياموزيون لمحاربة الواروا. قتل أربعة منهم وواحد من عبيدنا الصغار. ثم عادوا منكسرين فذهبنا بأنفسنا لمواجهة الواروا. حاربناهم مدة خمس عشرة دقيقة ودفعناهم القهقرى. مات جميع الأعداء وأشعلنا النار في قراهم كما أسرنا أربعمائة من نسائهم.

(٧٩) وحوالي الساعة التاسعة ظهراً وصلنا البحيرة وكانت كل القرى التي على الضفاف مدمرة. هرب السلطان وجميع الذين أتوا لشراء السمك. عندما رأوا قراهم تحترق ركض بعضهم إلى الزوارق لائذين بالجزر وفر بعضهم إلى القرى المجاورة. بقي البعض منهم منفرداً. عدنا في المساء إلى مخيمنا. لم نخسر غير الخمسة المذكورين وشخص سادس سقط في البئر فمات.

(٨٠) وبعد أن نمنا سمعنا جلبة تقترب منا فاعتقدنا للوهلة

الأولى أن الحرب قد اشتعلت ثانية غير أن الدليلين اللذين معنا وهما من رجال صديقنا السلطان مورونجو تامبوي أخبرانا أن الصوت صوت قومهم. ظهر حوالي خمسمائة رجل وقالوا لنا: «أتينا لأخذكم إلى مورونجو تامبوي الذي أمر بذلك. لقد ذهب السلطان إلى قرى الزعامة قرب الضفاف وعليكم أن تلحقوا به هناك». غادرنا الساعة الثانية صباحاً ووصلنا السابعة ظهراً. اجتمعنا بمورونجو الذي كان قد وصل قبلنا.

(٨١) بعد عشرة أيام عاد الفارون كل إلى قريته وأقيم السوق كالعادة وعادت تجارة العاج شيئاً فشيئاً. كان هناك سوق ضخم يغص بالمتسوقين. قابلنا السلطان باحترام بالغ. رأينا هناك مجموعات من البط تسرح وكميات من الطعام وسمك ومقبلات. لم يحضر لنا السلطان أي شيء عدا الزوارق المليئة بالأسماك. كل يوم يجد رجالنا كميات كبيرة، ذلك لأن أعدادهم كبيرة أيضاً. وتأتينا الأسماك الطازجة كل يوم.

(٨٢) أقمنا هناك تسعة أشهر ولم نتمكن من خلالها من تجميع أكثر من مائة فراسلة من العاج وحصلنا من السلطان كاجومبي على مائة وخمسين فراسلة ولا يزال لدينا الكثير من البضاعة. تأكد لنا أنه ليس لديهم المزيد من العاج واقترح علينا بعض السكان الذهاب إلى إرندي حيث وفرة العاج. وفي المقابل قال آخرون أنه لا يوجد العاج هناك وإنما قرون الجاموس. ولم نصدق الرأي الثاني لأننا لم نسمع ذلك من العرب الذين ذهبوا هناك. كيف يمكن للواحد أن يدعي عدم وجود العاج هناك؟ قررنا الذهاب إلى إراندا وذكرنا ذلك

للسلطان فوافقنا. طلبنا أدلاء يرشدوننا الطريق فأعطانا سبعة من رجاله.

(٨٣) ظهر لنا من جهة كاتانجا بعض رجال السلطان مسيري حاملين إليّ خمسة وعشرين قطعة من العاج. سألتهم: «هل هناك الكثير من العاج في المنطقة؟»، قالوا: نعم ولكن السكان هنا يريدون القماش لا الخرز». قلت لسعيد بن علي أن يعود إلى مسيري لأنه لم يوافق على ترك القماش في إتاوا لدى السامو ولا في رويمبا. قلت له: «لقد جلبت معك كل بضاعتك وهي غير مطلوبة في أي مكان نتوجه إليه. اذهب إلى مسيري واشرح له الأمر ثم اذهب إلى السامو حيث يخيم أقاربنا». أعطيناه ثلاثين بندقية وذهب في طريقه. غادرنا بعده بعشرة أيام وأعطانا مرونجو أدلاء يرشدوننا الطريق سرنا حتى وصلنا السلطان كيروا مروا (Kirua Mrua). هنا تنتهي البحيرة حيث يفيض عنها نهر يسميه الواروا كاماروندو (Kamarondo) بينما يعرفه الناس باسم لوالبا (Lualaba).

(٨٤) عبرنا ومضينا مسيرة يومين. وصلتنا الأخبار عن جمعة بن سليمان ود الركاض الذي تعرف قافلته بجمعة مريكاني[1]، بلغنا أنه وصل إلى أحد الزعماء ـ نسيت اسمه الآن ـ القاطن قرب كيروا (Kirua). قررت الذهاب لزيارته فعبرنا النهر ومضينا في الطريق نفسه الذي أتينا منه. وصلنا إلى مخيم جمعة وسألته: «هل تنوي

---

(١) هذا نوع من القطن الأميركي ورد إلى أفريقيا في مطلع القرن التاسع عشر عن طريق العرب. رزق، ص ٧، ويبدو أن جمعة هذا كان يتاجر في هذا النوع من القطن.

البقاء هنا أو تريد الذهاب؟». قال: «لا أنوي المغامرة في أرض مجهولة. وإذا ما بقينا هنا فإن الواروا سوف يحضرون العاج ويمكننا بذلك شراء ما نريد منهم. وشراء القليل بعد القليل سوف يوفر لنا في النهاية ما نريد. لا أريد دخول تلك المقاطعات». قلت: «استمع إليّ، لدي الكثير من العاج وسوف أتركه في عهدتك لأخذه مع عودتي إليك». قال: «حسن جداً، ولكن أليس من الأحسن أن نبقى سوياً أم أنك مصر على الذهاب إلى مكان لم يذهب إليه أحد. لقد سمعت أن إراندا عظيمة السكان». قلت له: «لقد عزمت على الذهاب لا الإقامة هنا». ليس لدي حمالون لحمل العاج لذا تركت ثلاثمائة فراسلة في رعاية جمعة متمنياً له حظاً أوفر.

(٨٥) وصلنا إيراندا ولم نرَ أي دليل على وجود العاج أو حتى الأفيال. هناك العديد من القرى المسكونة بالكثير من البشر. بنوا بيوتهم حول منطقة فضاء. مساحة تلك المنطقة أكثر من عشرين ياردة وفي كل جانب حوالي الخمسين بيتاً وفي المركز الفضاء برزة[١] عظيمة حيث يجلسون لتجهيز الكاسافا. يمكنك أن تقطع القرية الواحدة في ست أو ثماني ساعات، وكل البيوت مبنية بهذا الشكل. بيوت هنا وأخرى هناك ووسطها مجلس الصناعة. دخلنا منطقة إراندا ومكثنا طلباً للعاج. لم نجد شيئاً منه عدا قرون الجاموس. هنا لا يعلمون أي شيء عن العرب ولم يستخدموا

(١) البرزة المجلس العام وقد استخدمت هذه المفردة في الأصل.

البنادق قط. يأتي إلى هنا الواروا بالأسماك لشراء قرون الجواميس، وإذا وجدوا العاج اشتروه بأثمان رخيصة ولكن هذا لا يتكرر كثيراً. الواروا لا يملكون بنادق وسلاحهم هو السهام والرماح أما البنادق فلا يعلمون عنها شيئاً. وعندما رأوها عندنا سألونا: «هل هذه للدق؟»، فقلنا: «نعم إنها مدقات».

(٨٦) ذهبنا إلى سلطان رومبا (Rumba) لم يكن لديهم عاج ولا يهمهم شيء سوى قرون الجواميس. كل القرى التي رأيناها واسعة تمتد على مساحة كبيرة. مررنا بالسلطان سانجوا (Sangwa) وعبر قرى تابعة لزعماء متعددين. كما مررنا بالسلطان مكافوما (Mkafuma) وبأرض تدعى مفسانجي (Mfisange).

(٨٧) لا تخضع هذه المنطقة لزعيم مطلق إنما يأتي التجار لعرض بضاعتهم على ملاك الأراضي. وهنا قد يكون الغريب سلطاناً لمدة سنين ثم يأتي غريب آخر ليحل محله ويبني بيتاً في الغابات ويتاجر في كل شيء، العبيد والخرز وزيت النارجيل ثم يسلم المنزل بعد سنتين لمن يصل أولاً. هكذا تسير الأحوال هنا.

ومن عاداتهم أنه إذا مات شخص وهو مدين فلا يدفنونه حتى يقضي دينه، ومن دفنه ضمن حقوق الدائنين. وإذا عجز عن الإيفاء علقوه بين شجرتين ووضعوا تحته فأس الهالك ومعزقه وجرابه ويصادرون أملاكه. يأتي أصحاب المال ويقولون له: «إذا كنت تريد أملاكك فخذ فأسه أو معزقه». هذه هي قوانينهم في القضاء.

(٨٨) وفي كثير من المناطق التي مررنا بها حاول بعضهم سرقتنا إلا أننا كنا في غاية الانتباه. وهم يعتقدون أننا غير مسلحين فليس

لدينا غير مدقات فقط. على كل حال، واصلنا سيرنا وصادفنا في يوم من الأيام رجلاً يتحدث لغة الكيروا، ولحسن الحظ، فنحن نتحدث بها أيضاً. سألنا الرجل: «ما هدفكم بالضبط؟» أخبرناه أننا نبحث عن العاج. قال: «إذا كنتم تريدون عاجاً فاعبروا نهر رويمبي واذهبوا إلى كوتو (Koto)، حيث ستجدون الكثير من العاج أو اذهبوا إلى أماكن الزعماء كاسونجو روشي (Kasongo Rushie) وموانا مابونجا (Mwana Mapunga)، وهذه الأماكن لا تبعد كثيراً وبها العاج الوفير».

(٨٩) إن السلطان كاسونجو روشي رجل مسن جداً ولديه أختان هما: كينا درامومبا (Kina Daramumba) وكيتوتو (Kitot) وقد سمعت منذ زمن بعيد من كبار السن أن بارامونت هو سلطان أوروا وحكم بعده رونجو كاباري (Rungu Kabare) كل أرض أوروا وحتى متوا (Mtoa) بما في ذلك أرض مانيما (Manyama) وضفاف نهر رومامي (Rumami) وفوق ذلك كله خاض حرباً ووصل إلى أوتيتيرا (Utetera) وجلب أسرى من هناك منهم الفتاتان اللتان تقدم ذكرهما بالإضافة إلى أهليهما و وانا (Wana) ومابونجو (Mapungu).

وجدنا الكثير من العاج. أمامنا الآن طريقان: تذهب إحداهما إلى نسارا (Nsara) حيث السلطان موينى نسارا ـ نسارا اسم المنطقة ـ . وهي نفسها الطريق التي تأخذك إلى كاسونجو، علماً أن كاسونجو وموينى صديقان. أما الطريق الأخرى فتسير عبر مكاهوجي (Mkahuji) الذي يحارب كاسونجو لبعض المشاكل بينهما. إن ويني نسارا واني نجو (Wenyi Nguo) وواني كيبمومبي (Kibumbe) وواني

إيزيوا (Iziwa) ثم واني مكاتوا (Mkatwa) وواني مسانجي (Msangwe) زعماء مناطق كبيرة وكلهم مستعدون للهجوم على أوتيتيرا (Utetera) إن الأوتيتيرا كثيرو العدد ولكنهم أغبياء إلى حد ما لذا فهم يهزمون في المعارك دائماً. لقد سجلت هنا كل ما سمعته من أتباعي.

(٩٠) واصلنا المسير حتى بلغنا قوماً واقفين على مفترق طريقين. سألونا: «أين تريدون؟». فأخبرناهم أننا ذاهبون إلى كوسونجو روشي في أوتيتيرا، فدلونا على الطريق. ذهبنا وقضينا ليلتنا وسط القرى وفي الصباح دخلنا. بلغنا حوالي الساعة التاسعة قرى متعددة الأشكال يتصل بعضها ببعض ومختلفة عن تلك التي قدمنا منها. إنها كقرى أوروا فهي كبيرة ومتعددة. يمكنك أن ترى كيف يتصل بعضها ببعض فالأرض عبارة عن فضاء مستو. أقمنا هناك اثني عشر يوماً وكانت أياماً ممطرة. وجدنا كميات عظيمة من العاج معروضة بأسعار زهيدة. فبسوار واحد وصدفة وقطعة من القماش يمكنك الحصول على فرسيلتين أو ثلاث من العاج. إنها ببساطة بلا شيء. وهم سهلو المعاملة يعطونك ما لديهم ثم يمضون في حال سبيلهم. ولكن بعد اثني عشر يوماً أصبح العاج شحيحاً.

(٩١) وهنا جاءنا رجل يتحدث الكيورا بطلاقة، ذو شخصية جذابة واسمه بانجي بوندو (Pange Bondo) أحضر معه أربع قطع من العاج وسألني أن أصادقه. قلت له: «حسناً، اعتبر نفسك صديقي من الآن». قال: لقد كنت أحد زعماء هذه المنطقة ويقضي العرف عندنا أن الزعامة تنال بالوراثة وأن كل أسرة تتزعم المنطقة لمدة معينة بين سنتين إلى ثلاث سنوات تخلي المكان بعدها لأسرة

أخرى. ويتم ذلك دون أي نزاع». ثم علمنا أن هذا الرجل رفض التنحي عن الزعامة لخلفه مع نهاية فترة زعامته. فثارت حرب مات فيها السلطان المرشح فاختاروا غيره وقال لبانجي: «لن تكون سلطاناً مرة ثانية لا أنت ولا أحد من أبنائك لأنك كسرت قانوننا». وهكذا سقط حقه في الزعامة وعندما يحين دوره سيكون سلطان آخر محله.

(٩٢) عندما تحققنا من كساد التجارة هنا وأن العاج لم يعد يأتينا كالسابق قررنا التوجه إلى أوتيتيرا (Utetera) ولكن سكان مكاهوجى (Mkahuga) قالوا: «من غير المسموح لكم أن تذهبوا مباشرة إلى أوتيتيرا إلا عن طريق كريمبي (Kirembue) في الصباح بدأنا الاستعداد للمغادرة لنصل ظهراً. برز إلينا السلطان ومعه أربعمائة من رجاله. سألونا: «أين تقصدون؟». قلت: «أوتيتيرا». قال السلطان: «أعطونا بضاعة وسوف نعطيكم ترخيصاً لذلك». فأعطيته عشرين قطعة من الثياب ولرجاله عشراً ومقدار فرسيلتين من الخرز فقبلها، وفي هذه اللحظة ظهر رجال من كيرمبي وقالوا لنا: «عليكم إذا ما أردتم الذهاب إلى أوتيتيرا أن تتوجهوا إلى كيرمبي أولاً لأن سكان أوتيتيرا تحت رحمتنا، فلنذهب نحن وإياكم الآن ونعلن الحرب عليهم ولكم كل ما نغنمه من العاج ولنا كل ما نأسره من النساء». قلنا لهم: «لن نذهب إلى أي مكان آخر سوى كاسونجو (Kasongo) أوتيتيرا». وفي المساء جاء أربعة رجال يسألون: «أين تيبو تيب؟». فدلوهم وسألتهم: «من أين أنتم؟»، قالوا: «نحن من رجال كاسونجو أوتيتيرا». سألت: «وماذا تريدون؟»، فأجابوا: «أرسلنا

السلطان لنطلب منك الذهاب إليه وعنده العاج الكثير مما يمكنك شراؤه من أرضه»، قلت: «هذا حسن جداً، فأوتيتيرا أرضي وكاسونجو أحد أقاربي من قبل جدي [لأمي]». سألوا: «كيف يكون ذلك؟» فأخبرتهم بالقصة قائلاً: «منذ زمن بعيد جداً أعلن السلطان أوروا رنجو كابارا (Rungu Kabara) الحرب على هذه المنطقة وجاء حتى أوتيتيرا وأخذ معه أسيرتين هما كينا داروميمبا وكيتوتو إلى أوروا. وحدث أن جدي لأمي حبيب بن بشير الوردي رآهن واشترى إحداهن التي أصبحت أماً لجدي. ثم بعد فترة ولدت أمي. وكانت جدتي تحدثني أن السلطان في بلادها كان شخصية مهابة وكان ثرياً يملك الكثير من العاج. كانت تقول: «أخونا الأكبر هو كارونجي روشي (Rushie)» ولذلك أحرص على الذهاب إلى أوتيتيرا فلي فيها مآرب خاصة».

(٩٣) كانوا سبعة، عاد منهم أربعة فقط أما الثلاثة الآخرون فقد ظلوا في خوف للمهمة التي بعثوا من أجلها. ضربت طبول الحرب في المساء وقال السكان: «غداً ستكون معركة»، وفي الصباح جاء السلطان مكاهوجي ومعه أربعمائة من المقاتلين، كنا محاصرين بالقرى المزدحمة. كان جميع رجالنا على أهبة الاستعداد وقد شحنوا بنادقهم بالرصاص. وفي هذه الأثناء جاءتنا قطعتان من العاج بينما نحن نشد خيامنا للانطلاق. قال بعضهم: «اذهب أنت بالسلاح وسوف نبقى هنا لإتمام الصفقة». قلت: «لا داعي لذلك فهؤلاء الناس ضربوا طبول الحرب طيلة ليلة البارحة، مع أن الواتوتورا قالوا لنا إننا في مأمن من أي هجوم وهذا كنجوينجي (Kingoigoi)

سلطان كيريمبي يغلق الطريق. من الأفضل أن نواصل تجارتنا ولكن بحذر شديد».

(٩٤) وبينما نحن نجري الصفقة إذ بأولئك القوم يحيطون بنا بأعداد كبيرة يتقدمهم سلطانهم. كنت قد حذرت رجالي من أن يبتدئوا بإطلاق النار إلا إذا تعرضوا لهجوم مباشر. لقد كانوا في وضع الاستعداد التام. وفجأة سقط اثنان من النياموزيين برمحين فتأكد لنا أن الأعداء بدأوا يقذفوننا برماحهم. فتحنا النار عليهم. وعندما سكتت البنادق كان السلطان ورجاله لا يقوون على الحراك ولم يتمكن من الهرب إلا عدد قليل منهم أما حوالى سبعمائة فقد سقطوا موتى. مات جميع الواتوتورا. وفي المقابل أصيب بطلقات خاطئة ثلاثة من رجالنا مات واحد منهم فقط. دخل رجالنا بعد ذلك القرى القريبة ليعودوا بأكثر من ألف أسيرة وعدد لا يحصى من الأغنام. تركنا ذلك المكان إلى إحدى القرى التي دمرناها وأقمنا مخيمنا هناك. وفي الظهيرة جاء مائتان من الأعداء تقريباً ووقفوا على بعد. أرسلنا إليهم واحدة من الأسيرات لتخبرهم أن يأتوا إلينا. تقدموا إلى مقربة منا وسلموا سلاحهم من الرماح والأقواس. إنهم يريدون الخنازير، قلنا لهم: «خذوا كل ما تريدونه منها». انشغلوا كلية بالقبض عليها ـ كانت أعدادها عظيمة ـ . ثم ودعونا عائدين. كنا نلاحظهم جيداً وهم يسألوننا: «هل لديكم علاج لإخواننا الذين قتلتموهم فتعود الحياة إليهم ثانية؟» قلنا لهم: «لقد شبعوا موتاً». يعد هؤلاء من حماقتهم صوت البنادق رعداً. وفي هذه المنطقة يسقط الرعد في موسم الأمطار العديد من الأشجار ويموت بسببه

العديد من الناس ولذا فهم عندما سمعوا صوت البنادق اعتقدوا أنها رعد.

(٩٥) طلبت أو أوتى ببانجي بوندو ـ صديقي الذي يتحدث الكيروا ـ تعلمت هذه اللغة عندما كنت في أروا. هذا الرجل يتقن الكيروا. وهو الذي فقد حقه في الزعامة لأنه قتل السلطان التالي عليه. بعثت بعض السكان ليبحثوا عنه، انتظرنا ساعة ونصف وقبيل أن تغيب الشمس سمعنا صوتاً يقول: «مرحى بالسلطان العظيم بيننا. هذا أنا صديقك بانجي بوندو الذي جاءك حافياً. هل يمكنني الدخول؟» قلت له: «أدخل ولا تتردد»، فدخل وفي نفسه أمر ما، قال لي مباشرة: «اقبل تهاني لك، إن أكثر المكاهوجي أتباع لا خير يرجى منهم، وقد عقدوا اتفاقاً مع سلطان كيريمبي وكونجو كاوامبا (Kungua Kawamba) أن يقطعوا عليك الطريق إلى أوتيتيرا ولكن من حسن حظك أنني عرفت قبل أن تفاجأ بهم. أتيتك ومرادي أن تأمر هؤلاء الذين معي أن يجعلوني سلطاناً فهم محتاجون إلى أطفالهم الذين لديك وقد وعدتهم بذلك. وأكثر ما معك من أطفال الواتيتيرا أما أطفالهم فهم معدودون». قلت له: «كيف لي أن أميز أطفال الواتيتيرا من غيرهم؟» قال: «وافق أنت على العرض وسوف أقوم أنا بالباقي». طلبت الرجال الذين معه وقلت لهم: «إذا أردتم أطفالكم فعلكم أن تجعلوا بانجي بوندو سلطاناً عليكم». فوافقوا وألحوا على طلب أولادهم. وعدتهم بما طلبوه وفي ذلك المساء نصبوه سلطاناً. أخذوا تراباً خلطوه بالماء وصبوه على رأسه ثم أخذوا سلة ووضعوها على رأسه وهي تبقى هكذا، وعلقوا حول

رقبته عشر دجاجات صغيرة وهم يعتقدون أنها تموت في عشرة أيام».

في الصباح التالي جاءوا مع سلطانهم يطلبون الأطفال. وبوصوله تحدث إليّ السلطان سراً قائلاً: «أطفالهم لا يزيدون عن المائة. ولكن أحضرهم إلى المجلس واحداً واحداً فإذا رأيتني أنظر إلى الأسفل قل: هذا الطفل من متاتيرا، وإذا رفعت رأسي للأعلى فالطفل لنا». وافقته على الخطة وخرجنا. جلسنا في مكان مفتوح وطلبت كتاباً ثم أمرت بعرض الأطفال واحداً واحداً. فتحت الكتاب وعندما يؤتى بطفل أنظر إلى السلطان فإذا غمز للأسفل قلت: «هذا من المتيتيرا» وإذا غمز للأعلى قلت إن الطفل من أتباعه. قفز السلطان وقال: «يا رجال مكاهوجي هؤلاء محاربون فكيف عرف [أي تيبو تيب] أنهم من المتيتيرا. إنه عراف».

وبعد فترة مر خلالها خمسون من المتيتيرا برز طفل فرفع السلطان رأسه فقلت: «هذا حقاً طفلكم، فمقدرتي كعراف تخبرني بذلك». قفز السلطان ثانية مصفقاً بيديه ومبدياً إعجابه. أكملنا الفرز بعد يومين فوجدنا حوالي مائة فقط يتبعونهم أما الباقي وهم أكثر من ألف طفل فقد رجعوا إلى رجالنا لإعادتهم إلى إخوانهم.

(٩٦) عزمنا على التقدم للأمام فسرنا مسافة ثلاث ساعات حيث رأينا معسكر الكيريمبي والمكاهوجي. وكان المعسكر الذي بنوه عظيماً وتبدو كثرتهم على الطريق التي كانوا يسلكونها والتي عريت من الأعشاب تماماً لكثرة الوطء عليها لعدة أشهر. إننا محظوظون

كثيراً فلو هجموا علينا لأوقعونا في خطر عظيم لأنهم كانوا سيأخذوننا على غرة.

قطعنا طريقنا في ثلاث ليال وفي اليوم الرابع أشرفنا على قرية عظيمة للواتيتيرا تسمى مسانجي (Msange)، ويسكنها أناس من مختلف الأنحاء وهذا بالضبط معنى اسمها. وقد اختاروا موقعها بعناية لقطع الطريق على أعدائهم الواسونجو. وفور وصولنا سألونا عن رجالهم الثلاثة فأخبرناهم أن البنادق حصدتهم فقد كانوا مضطربين لحظة الصدام فأصابهم الرصاص خطأ. رضي أقاربهم بالأمر وأعدوا لنا مكاناً للإقامة داخل قريتهم، لكنني رأيت أنه من الأصوب أن نذهب إلى مشارف القرية وننصب خيامنا هناك. فقام رجالنا بعمل ذلك.

(٩٧) جاءنا رجل من أسرة الزعامة في القرية واسمه ريبوي (Ribwe)، وهو شاب سمح الملتقى. سألني عن الأخبار فأجبته إنني أتيت لمقابلة جدي كاسونجو روشي، موانا مابونجا (Mwana Mapunga). قال: «وكيف له أن يكون جدك؟». فشرحت له أن جدي حبيب بن بشير الوردي ترك الساحل متوجهاً إلى أوروا حيث السلطان رونجو كابارا. رأى هناك جارية جميلة معروضة للبيع واسمها ديريومبا موانا مابونجا فأخذها معه إلى الساحل وتسراها فأنجبت أمي. جدتي هذه من بيت زعامة وكانت تخبرني بذلك ثم تحثني على الذهاب إلى هناك مع أن ذلك ليس بالأمر الهين. كانت تقول أن أخاها كان سلطاناً قوياً واسمه كاسونجو روشي موانا مبونجا وأن جميع رجال الواتيتيرا والكوسو تحت زعامته. وقالت

أيضاً أن بيت الزعامة ينقسم إلى أربع فرق ولكن فرقتهم هي الأكبر. وقد أكد لي هذا الشاب دقة هذه الأخبار. عندما أخبرت ريبوي بالحروب التي خضتها في طريقي إلى هنا أعجب بشدة إرادتي لتحقيق هذه الزيارة. غادرنا الشاب إلى مسكنه وبعث إلى كاسونجو الذي يبعد سكنه مسيرة أربعة أيام. وفي المساء جاء بمأدبة عظيمة أكثر من مائة رأس من الغنم ومعها عشرون قطعة من العاج.

(٩٨) بقينا ثلاث ليال هناك وفي اليوم الرابع جاء رجل من قبل كاسونجو يدعونا إليه. سرنا مسافة أربعة أيام مارين بعدة قرى متوسطة الحجم. وعندما أشرفنا على قريبته ألفيناها متوسطة الحجم أيضاً، وهي لنسائه. وهناك قرى أخرى مجاورة. قال: «لتقم معنا» فأجبته: «لقد اعتدنا على الإقامة على ضفة النهر». وافقني على ذلك فغادرناه سائرين مسافة ربع ساعة فقط لنجد نهراً جميلاً. هنا نصبنا خيامنا. وفي الصباح جاء السلطان ومعه بعض رجاله وقال لي: «الأمر كله يعود إليك الآن وكذلك شؤون الزعامة أتخلى عنها لك. احضروا له كل ما لديكم من عاج وإذا أشكل عليكم أي أمر فعودوا إليه ولا ترجعوا إليّ فيما يأمر». جمع رجالاً من هنا وهناك ومع حلول المساء جاءوا بما يقارب مائتي قطعة من العاج ما يزيد عن ٥,٣٧٤ فراسلة واستمروا في كل يوم يأتون بقطعتين أو ثلاث.

(٩٩) منذ زمن بعيد لم ير كاسونجو العاج كما لم يأكل لحم الأفيال ولم يشاهد طلوع الشمس ولا غروبها. لا تضره الشمس وقت الظهر وإنما تضره وقت الطلوع ووقت الغروب فقط. وعندما عرفت ذلك طلبت بعض أسرانا وسألت السلطان: «هل هؤلاء

قومك؟» قال: «نعم إنهم قومي» فأطلقت سراحهم مما زاد تقديري عندهم. كل الأمور كانت بيدي. وعندما يحدث نزاع أتدخل بالفصل فقد أعطاني السلطان هذه الصلاحيات. لقد أصبحت حقاً السلطان المطلق.

(١٠٠) مكثنا هناك مدة من الزمن سافر خلالها خالي بشير بن حبيب إلى ريفو حيث السلطان كيتيتي. وعد وصولهم وجدوه مقتولاً مع عشرة من العرب وخمسين من النياموزيين. لقد قتلوا ومن تمكن من الهرب التجأ إلينا. كان القتلة من قبيلة الكوسو (Kusu) من المناطق الداخلية. قررت أن أهاجمهم. بعد حوالي ثلاث ساعات من بداية رحلتنا لحق بنا أحد رجال كاسونجو وطلب أن نتوقف وننتظره حتى يعود إلينا. ظهر يسير بصعوبة إذ كان طاعناً في السن ومعه حوالى أربعين ألف رجل. قلت له: «أنت رجل مسن فلا تزج بنفسك في هذه الحروب وعد إلى بيتك». ولكنه أصر على مرافقتنا والبقاء بجانبي وقال: «إذا مت أنت فعلينا أن نموت جميعاً. لم أر دارمومبا موانجا (Daramumba Mwana) لقد ماتت دون أن نلتقي. ليس هناك أي مجال للعودة». تضاعف عدد المحاربين في اليوم الثاني ليصل إلى عشرة آلاف محارب. وفي طريقنا أغرنا على عدة قرى. كان المحاربون الذين معي يأكلون لحم البشر، كل رجلين يأكلان رجلاً واحداً. منعت ذلك ولكن لم يمتثل أحد لأمري بل قالوا لنا: «إنكم أيضاً ممنوعون من أكل الأغنام».

(١٠١) عندما سمع الواسونجي ـ ممن يتبعون كيرمبي ومكاهوجا ـ أنني غادرت وأن واسونجو غير موجود هجموا على القرى الواقعة

على الحدود وساقوا الغنائم وعندما عدنا أعلنا الحرب على الواسونجي وهاجمناهم. ولم يتخلف عنا واسونجو بل جاء برجاله. كان أعداؤنا عظيمي العدد ولكننا تفوقنا في التغلب عليهم. مات كثير منهم وأسرنا آخرين لا يحصى عددهم. غنمنا الكثير من الأغنام كما أن بعض رجالنا قاموا بجمع الخنازير. مكثنا أكثر من أربعين يوماً، ثم جاءونا طالبين الصفح حاملين إلينا بعض العاج وبعض الأغنام فضمنا لهم عدم الهجوم ثانية. امتلأت مخازننا فما يموت فيل إلا يأتوننا بالعاج. كما جاءني صديقي بانجي بوندو بكل ما يملك من عاج ولم يغير بيننا عهداً.

(١٠٢) بقيت في أوتيتيرا ثلاث سنوات. بعثت رجالاً إلى ماريرا، التي لا تبعد من هنا، ولكنهم وجدوا بعض المشاكل. فالمنياما (Manyama) كانوا في حالة حرب دائمة. ذهبوا إلى السلطان روسونا الذي استقبلهم استقبالاً حاراً وأكرم وفادتهم ثم سألهم: «أريد عقد صداقة مع تيبو تيب. ولكنني لا أعرف ماذا أهدي إليه، هل يفضل العاج أم النساء؟». قالوا: «العاج»، فأعطاهم عشر قطع منه ثم إن مبيانا نجوروي (Mpiana Nguruwe) علم بما حدث فبعث إلى رجالي يستدعيهم وعند وصولهم أكرم ضيافتهم وأعطاهم ستة قرون من العاج. وبعد فترة بعث روسونا أخاه رومونجا (Rumwanga) إليّ. وعندما جاء استقبلناه استقبالاً حاراً وأعطيناه الملابس والخرز.

مات صانع البنادق العامل معي فآلت بنادقنا إلى حالة سيئة من الضعف. أخبرت رومونجا بذلك وسألته: «أين تقع بالضبط

مانيما؟». فأجاب: «تقع على الضفة الأقصى لأجاراوي (Ugarawe). وهناك الكثير من الناس أمثالك (أي عرباً)، والسكان يطلقون على ذلك النهر اسم أجاروي وهو في الواقع نهر الكونجو». قلت له: «إذا تخيرت عدداً من رجالي فهل بإمكانك أن تأخذهم إلى هناك؟». قال: «نعم إنه بالإمكان ولكن الطريق مهددة دائماً بالحروب فبعد أن تعبر أراضينا تأتيك أرض السامبا (Samba) بعدها أرض إباري (Ibari) حيث يصنع الملح. ثم تظهر قرى صغيرة متتابعة تصلك بأوجاروي على الضفة الأقصى». في أوجاري يمكن للواحد أن يرى العرب ـ أمثالنا ـ مسلحين بالبنادق. قررت أن أسير بنفسي وتبعني كاسونجو روشي، سرنا في حاشية كبيرة حتى بلغنا ماريرا.

عندما بلغنا منطقة روسونا شكلنا نحن والزنوج قوة عظيمة لم تتورع عن نهب الأغنام ومهاجمة البشر. قال روسونا: «ارجع هؤلاء القوم الضعاف فلا يمكنهم الاستمرار في الإيذاء، ولا غرابة فهذا ديدنك. سنقوم بتشكيل قوة أخرى تزيد عن هذه مرتين. خذ رجالك واغربوا عن هذه الأرض، اذهبوا جهة أجاراوي (Ugarawe) عندما يعبر رجالك إلى هناك فسيجدون عرباً أمثالكم وسيمكنهم إصلاح بنادقهم».

(١٠٣) عدت تاركاً سبعين بندقية مع قوة قوامها خمسمائة من النياموزي. وعندما وصلت أوتيتيرا مكثت عشرين يوماً، بينما كان سكان ماريرا يعدون العدة لحملتهم. ومع كمال حشدهم توجهوا إلى روسانا منطقة (Rusana) الذي كان قد جهّز قوة كافية. ناموا في مبيانا

نجوروي وغادروها في الصباح. كانوا قد قطعوا مسيرة نصف ساعة عندما سمعوا أزيز الرصاص. فر السكان وقام روسانا بتفقد أحواله.

أما القوة المقبلة فعندما سمعوا الطلقات هرب بعض منهم. كانت تلك القوة من سكان ساحل مريما ومعهم حوالي ألف بندقية. تراجعوا عن أفكار الحرب وكذلك أتباعنا. سألوا: «قوم من هؤلاء؟». فأجيبوا: «إنهم لتيبو تيب». سألوا: «وأين حمد بن محمد؟». في أوتيتيرا كانت الإجابة. أرسلوا إلي وتخلوا عن أفكار الحرب. وصلت في اليوم الرابع والتقينا. في ذلك الوقت كان سلطانهم هو موريني دوجومبي وهو رجل من ساحل مريما من ويندي. وكان هناك أيضاً رجال سعيد بن حبيب العفيفي وهو عربي وعبد بن سالم الخضوري وهو عربي أيضاً وكذلك أتباعهم من سكان المنطقة، وكانوا يريدون مهاجمة قوتنا في قيادة روسونا. قائد قواتهم هو كبير النيانجوي واسمه متاجاموير. عندما وصلت ورأى كل منا الآخر فرحنا فرحاً عظيماً. قالوا لي أن أرفع الراية على المناطق الخاصة بي وهم سيرفعونها إلي مناطقهم.

ومنذ تركت الساحل لم يصلني أي خبر. غادر أخواي رويمبا وإتاوا. لم أعلم بخبر موت السيد ماجد ولا بالإعصار الذي أطاح بأشجار كثيرة في زنجبار (١٥ ـ ٤ ـ ١٨٧٢)، ولم أعرف بتنصيب السيد برغش ولا بحرب تابورة.

قال لي متاجامويو: «في تلك الأيام وقبيل لقائنا هنا جاء رجل إنجليزي من أوجيجي، تانجانيقا يسأل عنك. ومعه سعيد بن محمد المزروعي ولكننا لم نره». قال متانجامويو إنه علينا الذهاب إلى

نيانجوي وكاسونجو حيث يوجد عرب من جماعتنا. قلت له: «حسناً جداً أما أنت فتابع وجهتك. سأجمع رجالي وألحق بكم في يومين أو ثلاثة أيام». أجاب: «أعطني رجلين». أعطيته ثلاثة وذهب بهم.

لحقت بهم بعد عشرة أيام، وكنت خلفهم مباشرة وبعد سبعة أيام وصلنا أجاراوي، على الضفة البعيدة رأينا قرية كبيرة جداً جزء منها خاص بالعرب والآخر لأولئك الذين هم من ساحل مريما.

وما إن رأوني حتى أحضروا الطوّافات فعبرنا وعاملوني ببالغ الاحترام. أما الأرز فلم نره أبداً حتى ذلك الوقت، لم نره منذ ثلاث سنوات على الأقل.

وبوصولنا ظهر الإنجليزي السيد كاميرون ومعه مائة بندقية. جاء إلى قريب من مخيمنا وقال: «خذني إلى مخيمك رجاءً. أريد أن أتبع نهر الكونجو ولكن سكان نيانجوي لم يضمنوا لي الرخصة بذلك. أخشى أن يهجموا عليّ. لنذهب إلى مخيمك رجاءً. وانظر لي طريقة أصل بها الساحل الغربي». قلت: «حسناً جداً، ولكن انتظرني فعليَّ الذهاب إلى أقاربي بكاسونجو وسآخذك معي». قال: «اترك كل أعمالك ولنذهب غداً». وافقته على الذهاب غداً وكتبت إلى جماعتي أخبرهم بذلك. في الصباح ذهبت لوداع أتباعي من نيانجوي. قالوا: «هل ستترك كل شيء من أجل هذا النصراني!»[1]. قلت: «لا بد لي من الذهاب

(١) استخدم المترجم كلمة أوروبي بدل نصراني. أما الكلمة التي استعملها المؤلف فهي Wazungu التي يمكن ترجمتها بكلمة نصراني نسبة إلى دينه.

معه». قالوا: «على الأقل ابقَ يومين أو ثلاثاً». قلت: «لا أستطيع فعل ذلك».

(١٠٤) سافرنا في الصباح سائرين ببطء لنصل في اليوم الخامس عشر. أقام معي عشرة أيام ثم طلب بعض الأدلاء. أعطيته الفتيان الذين أتوا بي، وهم الواراووا أتباع مرونجو تامبوي. في ذلك الوقت كان السلطان هو رونجو كاباري، لقد كان أعظم زعماء الواروا. شنّ حرباً على مناطق في منيامي ولم توقفه إلا بحيرة تانجانيقا. وصار السلطان كاسونجو كارومبي.

أعطيت كاميرون رجال الواروا ومعهم ثلاثون رجلاً آخرون فأخذوه. عندما وصلوا إلى مناطق كاسونجو كارومبو قابلوا بعض البرتغاليين الذين حضروا للتجارة. عاد رجالي، أما الواروا فقد عادوا إلى منازلهم. بلغ السيد كاميرون الساحل القريب من إلاندا (Elanda)، الواقعة تحت السيادة البرتغالية ولا أعرف فيما إذا كانت تقع شمال أو جنوب لواندا (Loanda)، لكنها كانت قريباً من هناك.

(١٠٥) بعد عودة رجالي الذين رافقوا كاميرون انتظرت مدة ثلاثة أشهر لا أسمع كلمة منه، ولكن بعد مضي ثلاثة أشهر وعدم وصول أي خبر تأكد لي أنه ليس لدى السيد كاميرون ما يستحق الإعلام.

قررت مغادرة أوتيتيرا والذهاب إلى كاسونجو. غادرت ومعي رجالي ومعي عاجي. خلفت مائة رجل من النيامويزي وخمسين بندقية مع كاسونجو رونتي، كنت أنوي الإقامة.

في أوتيتيرا جعلت رجلاً من ساحل مريما اسمه موريني دادي

(Mwinyi Dade) لرعاية شؤون أوتيتيرا. زعامة المنطقة كانت في قبضته. في الواقع، كاسونجو لم يعد راغباً في بقاء الزعامة في قبضته.

(١٠٦) ذهبنا وبلغنا نيانجوي (Nyangwe) قال لي جماعتي من مريما: «ابق هنا ولنكن معاً». قلت لهم: «أنا ذاهب إلى كاسونجو لرؤية قريبي محمد بن سعيد المرجبي، بوانا سيجي»[١]. ألحوا عليّ فرفضت، ورحلت. مررت بكيهانداي (Kihandaiy)، وكيبوجو (Kibogo)، وكابانجا (Kabanga)، وكان الزعماء في كل منطقة يريدونني أن أبقى وأكون سلطاناً عليهم. أما أناس نيانجوي فقد أخبروني أن الناس في كاسونجو في حالة من الشدة والمجاعة. كما كان الناس في مشقة مع عبيدهم الذين هربوا ولا يمكن العثور عليهم. قلت لهم: «لا بأس، بوصولي سيكون كل شيء بيد المولى عز وجل».

وصلت إلى كاسونجو في صباح اليوم الثالث. فرح أقاربي بوصولي فرحاً عظيماً وفوّضوا إليّ مسؤولية المنطقة. ما أخبرت به في نيانجوي أستطيع أن أراه بنفسي، خاصة المجاعة. وكان السكان أنفسهم في مزاج عصي، خاصة الوازوا (Wazua) الذين كانوا كثيري العدد ومتمردين. كما كان معهم أيضاً ـ بالإضافة إلى آخرين ـ أناس أوجيرا (Ugera) يصل مجملهم إلى عشر قرى متجاورة. كان وضعهم سيئاً بلا حدود.

---

(١) بوانا (Bwana) تعني السيد أو الملاك كثير الممتلكات. وسيجي (Sige) لم أجده في المعجم والأقرب إليها سيكي (Siki) ومعناها الخلّ المستخدم في الطعام.

بقيت شهرين، وفي الثالث أبعدوا مائتين من عبيدي. بحثنا ولم نتمكن من العثور عليهم. اجتمعت بالعرب الذين كانوا بكاسونجو وهم محمد بن سعيد المرجبي وسعيد بن سلطان بن سعيد الغيثي وسعيد بن محمد بن علي المزروعي وحمد بن خميس الغيثي ويابس بن سليمان ومعهم خدام الغيثيين مواسيني بن موسى وسالم بن مقدَّم وكذلك خادم ناصر بن مسعود بن سالم وليد أحمد. هؤلاء الرجال الذين اجتمعت بهم ولم يكن معهم إلا عدد قليل من البنادق. أفضلهم [سلاحاً] محمد بن سعيد بن حمد، بوانا سيجي. عندما رأيت الحال قلت لهم: «ما الرأي؟ لقد تمرد القوم». قالوا: «نترك لك الأمور كلها، عظيمها وحقيرها، والمسؤولية مسؤوليتك ولن يراجعك أحد».

(١٠٧) قررت الحرب ونازلنا السكان مدة ثلاثة أشهر حتى أعلنوا الاستسلام ورغبتهم في العيش بسلام. صارت المسؤولية عليهم بأيدينا وفيما يتصل بالعاج فهم لا يملكون أي حق في بيع ولو قرن صغير وإذا ما أردنا أي عمل فعليهم إحضار الرجال لإنجازه. الطعام كان متوفراً، من الأرز ومن كل صنف. أناس من نيانجوي قدموا وأحضروا الأرز إلى كاسونجو، ويُسمّى بونجالا (Bungala) وهو متوفر عندهم بكميات عالية. قايضوه بالعاج. كان الأمان متوفراً هناك. وأولئك الناس الذين طلبوا مني أن أكون سلطاناً عليهم عندما تركت نيانجوي قادماً إلى كاسونجو أتوا وفي طريقهم قتلوا كل من صادفوه. تحكمت في كل المناطق التي تعبرها الطرق. عاد الأمان ثانية. حتى النساء كن يسافرن، ولم يكن إلا الاحترام وتوفير الضيافة.

أما الرجل الذي تركته مسؤولاً في أوتيتيرا، فإن الناس في تلك المناطق كانوا يخشون منه أكثر من خشيتهم مني. بعد شهرين أو ثلاثة أحضروا له عاجاً وعبيداً ومعزاً، حسبما أراد. كان الصرف في كاسونجو على هذا المنوال. أتوا ببضائع أخرى وقايضوها بالعاج.

(١٠٨) بقيت هناك ثمانية أشهر تقريباً بعدها رحلت ثانية. اخترت مجموعة من الرجال وبعثتهم رسلاً إلى بحيرة تانجانيقا. وصلوا تابورة والتقوا أخي محمد بن مسعود الوردي، أخي لأم وهو أكبر مني. وجدوه في قرية أبي محمد بن جمعة المرجبي. فرح أبي وأخي فرحاً كبيراً. أما ما كان من أمر أخي محمد بن مسعود، الذي تركته في رويمبا (Ruemba) وإتاوا (Itawa)، فعندما انقطعت أخباري عنه لمدة طويلة أرسل ما عنده من العاج مما يصل إلى سبعمائة فراسلة، وهي تخصه وتخصني، ولكنه لم يغادر حتى أتاه الإذن مني.

(١٠٩) ومع عودتهم كان رسلي فرحين جداً، أتوا برجال وبارود ورسائل ـ تستحثني على العودة ـ من أخي، الذي قال: «لقد تأخّرت لا أستطيع الذهاب إلى الساحل إلا إذا أتيت بنفسك. لقد بعثت بعاجك إلى تاريا توبان (Taria Topan). وبالرغم من وصول رجالي غير إنني لم أذهب، وأخيراً، صار العاج يرد كل يوم. بالنسبة للرجل الذي بلغني الرسالة التي تستحثني على الذهاب فقد أعطيته المنطقة ليديرها. أصبح زعيماً، وبقيت أراقب وهو لم يكن مستعجلاً على المغادرة. لا أحد يريد المغادرة.

وفي النهاية وصل هناك سعيد بن علي بن منصور الهنائي الذي تركناه في أوروا. كان قد ذهب إلى مسيري (Msiri) في كاتانجا (Katanga) وعندما فرغ من تجارته ذهب إلى إتاوا (Itawa) بعده ذهب إلى تابورة برفقة أخي وبقي هناك لبعض الوقت. عندما رأوا صمت الرسل جاء سعيد بن علي. لقد فاجأنا. كنت بعيداً ذاهباً إليميتامباني (Mitambani) لشراء العاج. كنت على مسافة سفر عشرة أيام عندما أتت الأخبار بوصول سعيد بن علي إلى كاسونجو. عدت تاركاً علي بن محمد الهنائي وبكر بن فكي المريمي ليكونا مسؤولين عن الرحلة. عدت وقابلت سعيد الذي أخبرني أنه أتى للبحث عني. وافقته [على العودة] ولكني اقترحت أن ننتظر وصول رجالي ثم نذهب.

(١١٠) بقينا مدة أربعة أشهر عندما أتت الأخبار أن بعض البرتغاليين أتوا لمهاجمة أوتيترا. قررت أن أذهب، وبوصولي ماريرا (Marera) أصدرت الأوامر بالحرب فذهبوا وقاتلوا البرتغاليين حتى أجلوهم. في هذه الأثناء أتت الأخبار أن سعيد بن علي بن منصور مريض. عزمت على العودة، وفي الطريق جاءت الأخبار بوفاته. حزنت حزناً شديداً. وصلت نيانجوي ولم أبق غير يوم واحد قبل أن أغادر إلى كاسونجو. بعد وفاة سعيد بن علي ولمدة تسعة أشهر كان رجالي يحضرون لي العاج - وهم الذين كانوا تحت إمرة علي بن محمد الذي تركته مسؤولاً عن الرحلة عندما ذهبت لملاقاة سعيد بن علي وقد ذهب إلى ميتامباني (Mitambani).

(١١١) بقيت مدة شهر وفي ظهيرة أحد الأيام برز ستانلي[١]. استقبلناه ورحبنا به وأعطيناه منزلاً. في الصباح ذهبنا لرؤيته فأخرج إلينا بندقية وقال: «من هذه البندقية تنطلق خمس عشرة رصاصة». لم نكن نعرف ببندقية تطلق خمس عشرة ولم نسمع بمثلها أو نرها. سألته: «من خرطوم واحد؟» قال: «تخرج من خرطوم واحد». سألته أن يجربها حتى نرى. ولكنه قال إنه علينا أن ندفع من عشرين إلى ثلاثين دولاراً لكل مرة. في ضميري كنت أظن أنه يكذب. بندقية ذات خرطوم واحد!!، عندما فكرت ثانية اعتقدت أنها قضيب تنظيف. «كيف يمكن أن تخرج الرصاصات واحدة تلو أخرى في خرطوش واحد؟» قلت له: «هناك في رومامي (Rumami) قوس يأخذ عشرين سهماً [في المرة الواحدة]، وعندما ترمي تطير السهام معاً. وكل سهم يقتل إنساناً واحداً» حينئذٍ خرج وأطلق أحد عشر رمية وأخذ المسدس وأطلق ست رصاصات. عاد وجلس في الشرفة. تعجبنا من ذلك. سألته كيف يحشو الرصاص فأراني.

(١١٢) مر يومان، وفي الثالث سألني إن كنت أعرف مونزا (Munza) قلت: «لا أعرفها ولم أسمع أبداً بمكان يدعى مونزا». قال لي: «عندما تذهب إلى نيانجوي فاتجه جنوباً مدة ثلاثين يوماً

---

(١) هنري مورثون ستانلي (١٨٤١ ـ ١٩٠٤) Henry M. Stanley ولد في ويلز وفي سن الثامنة عشرة ذهب إلى أميركا وتعلّم هناك. عمل صحفياً في صحيفة New York Herald، ولكن كان يهوى الظهور حتى وإن قتلته تلك الأمنية. فأراد أن يقوم بعمل يخلد ذكراه فقام برحلة للبحث عن المستكشف لفنجستون في أفريقيا ١٨٦٦، وأعقبها بأخرى سنة ١٨٧٤ للطواف حول فكتوريا وتنجانيقا وغيرها وفي سنة ١٨٧٦ دخل نيانجوي حيث التقى بتيبو تيب، واكتشف بمساعدته أجزاء من اللوالايا، رزق، ص ١٢ ـ ١٣ بتصرف.

وستصل إلى مونزا. استمع إلي. يبدو أنك الرجل المناسب، أريدك أن تأخذني». وافقت بتردد. «إضافة» قال: «سأعطيك سبعة آلاف دولار». قلت له: «لن أقوم بذلك لأجل المال» وأريته ما عندي من العاج. «سأذهب معك لأجل المعروف أما السبعة آلاف فلا تغريني بالتحرك من هنا». اندهش ستانلي من كمية العاج، قلت له إن إجابتي الأخيرة ستأتيه في الصباح. نمت وفي الصباح أخبرته بالموافقة على أخذه. غادرنا في اليوم الثاني. اجتمع كل أقاربي محاولين ثنيي «تترك كل أعمالك لتتبع هذا الأوروبي ولا تعرف حتى إلى أين تتجه؟» يئسوا من المحاولة وأجبتهم «أهتم بشؤوني الخاصة وليس بشؤون الآخرين».

غادرنا ووصلنا نيانجوي. كان الناس هنا أكثر إلحاحاً علي وسخرية مني، «لماذا تذهب مع هذا الأوروبي! هل فقدت عقلك؟! أنت مجنون، وهل ستصبح نصرانياً لست في حاجة، فلماذا إذن؟ لديك مخزون من العاج فلماذا ترافق هذا الكافر؟» قلت لهم: «ربما أكون مجنوناً وأنتم العقلاء، اهتموا بشؤونكم الخاصة».

(١١٣) تركنا نيانجوي متجهين شمالاً عبر الغابة حيث لا يمكن للواحد رؤية الشمس من كثافة الأشجار ما عدا الأماكن النظيفة نتيجة الحصاد أو حيث القرى. عانينا صعوبة بسبب الطمي خاصة أولئك الذين يحملون القوارب. حلّ المساء ونمنا والقوارب رصصناها على الطريق.

هذه كارثة كانت لأولئك الرجال الذين كانوا يحملون أحمال ستانلي وقاربه. سفر اليوم الواحد أخذ ثلاثة أيام. كان ستانلي

ملحاحاً وقال لي: «ماذا تقترح؟ هذه الصعوبات بالغة. ماذا تقول؟ كم يوماً نبعد عن الكونجو؟». قلت له: «لم نذهب إلى هناك قطُّ ولكنها غير بعيدة، سنصل في ستة أيام أو سبعة أيام. الغابة هي الصعبة، والنهر قريب». ألحّ علينا أن نسرع نحو النهر.

(١١٤) عندما وصلنا النهر رأينا بعض السكان المحليين مقبلين في زوارقهم الصغيرة، كل اثنين في قارب. اقتربوا منا كثيراً فدعوناهم لكنهم زعقوا بالشتائم. كان ستانلي - بشكل خاص - سعيداً بالوصول إلى النهر، وقام بتجميع القوارب.

اقترب السكان المحليون وناديناهم ولكنهم ثانية زعقوا بالشتائم سائلين عمّا نفعل. أجبنا أننا نقوم بجمع أناس وقوارب. أنا وستانلي ركبنا القارب ومعنا عبد الله بن عبد، خادمي وأثنان من عبيدي وأربعة عشر من الحمالين الذين مع ستانلي فصارت الجملة ثمانية عشر. طوّافاتهم تبلغ الثلاثمائة. أطلقنا النار عليهم عدة دورات فامتلأوا هلعاً. كانوا يُسَمّون واجينيا (Wagenia) ويقضون حياتهم في الصيد. استسلم بعضهم وسلموا طوافاتهم، وصار لدينا أكثر من ثلاثين منها عبرنا بها النهر.

بنيت قراهم بجوار النهر، ورأيناها خالية لهروب سكانها. وهم يعتمدون في غذائهم على الموز ولديهم الكثير من الماعز، أمسكنا بعدد منها. أقمنا على الضفة الأخرى وبعثنا القارب لنقل رجالنا للضفة التي كنا بها حيث توجد القرى أيضاً. ضممنا كل عبارتين معاً لأنها كانت صغيرة جداً. كنا قلقين من استخدامها وجعل

الرجال يعبرون بها ولكن عندما ضممناها معاً كانت أكثر قوة وأمكنها حمل أربعة رجال مع الحمولة دون قلق.

(١١٥) كنا قلقين حيث إنه كان على رجالنا تتبع الطريق العالي، عندما كنا في القوارب وآخرون في الطوّافات.

طاردت السكّان المحليين وأسرت عدة طوّافات وعدداً من الأغنام. أخذت مرةً ست أو سبع طوّافات وعدداً لا يحصى من الأغنام ولكنهم كانوا جهابذة في جعلها [الأغنام] تهرب بقرع طبول الحرب والتي تسمّى منجونجو (Mingungu) قرعوها في القرية الأولى ثم في الثانية، ثم في كل قرية سمعت القرع. يمكنك السير مسافة شهرين دون أن ترى أي شيء في تلك القرى عدا الغنم لكثرة عددها وعدم استطاعتها الهرب، السكان أنفسهم [لجأوا] إلى طوافاتهم، التي لا يشاهدها الواحد، فقط عندما تمر بهم الرصاصة أو تصيبهم، وعندما يلقون بأنفسهم في الماء تاركين زوارقهم.

(١١٦) ذهبنا إلى أن وصلنا إلى نهر كاسوكو (Kasuku) حيث مجمعه بنهر الكونجو من جهة الشمال الجانب المتصل بمصادره. في هذا الوقت كنا قد حصلنا على قوارب كافية لستانلي وأحماله. أقمنا على نهر كاسوكو اثني عشر يوماً حينها قال لي ستانلي: «عد الآن، لقد أسديت لي خدمة كبيرة في فترة الأربعة أشهر أو ما يقاربها، وعلى كل لنقم بجهد أخير للعثور على طرادين كبيرين يكفيان لحمل حماري». هنا كانت نقطة الافتراق بيني وبين ستانلي، قضينا الليلة مضطجعين في الجزيرة في انتظار السكان المحليين حتى حصلنا على قارب كبير بدرجة كافية.

(١١٧) جمع ستانلي رجاله وقال لهم: «الآن سيعود حمد بن محمد المرجبي، أما أنتم فعليكم الاستعداد إذ أننا سنغادر بعد غد». أجاب رجاله: «إذا عاد حمد بن محمد فإننا سنعود أيضاً، نحن لن نذهب إلى أرض غريبة، وعلى كل حال كنا قد وقعنا الاتفاق على الساحل لسنتين وقد انقطت الآن سنتان ونصف. إذا عاد حمد فنحن نصر على العودة أيضاً». كانوا مصممين على عزمهم، همّ الرجال، ألا يتقدموا. كان ستانلي محبطاً تماماً، حتى إنه فقد رغبته في الطعام عندما يحضر الطعام.

في المساء جاء ليراني وقال: «ستفشل خطتي إذا عادوا، وعليّ العودة أيضاً وسيذهب كل عنائي هباءً، هل لك أن تساعدني؟». قلت له: «سأساعدك بمشيئة الله». نمت وفي الصباح ذهبت إليه وسألته: «حسناً، ماذا قررت؟». قال: «ليس لدي أية خطط ولا حتى أدري ما أفعل». قلت له: «حسناً جداً، خذ نصيحتي، ادع رجالك جميعهم، وتحدث إليّ بلهجة شديدة أمامهم، قل - انظر إذا عدت أنت فسيصر جميع رجالي على العودة. حسناً إن أعمالي هي أعمال الحكومة ونحن على اتفاق مع السيد برغش. إذا عاد رجالي فعند عودتي سأخبر السيد برغش أن حمد بن محمد دمر رحلتي، وعندها ستصادر أملاكك - وعندما تنتهي من قول ذلك اترك الباقي علي». خرجت وعند العصر دعاني، جامعاً كل رجاله، ومتحدّثاً إليّ بالطريقة التي وجهته إليها أمام الرجال وبطريقة خشنة. قلت لهم: «هل سمعتم ما قاله ستانلي؟ عليكم أن تنطلقوا وتواصلوا طريقكم. أما من يتبعني فسأقتله لأنكم ستدمرونني، ستصبح أموالي

ملكاً للحكومة، وبهذه الطريقة تكونوا قد قتلتموني وكل ما عانيته في السنوات السابقة قد ضاع. ليس هناك حاجة للموت هنا، أليس كذلك؟ ولكن إذا لحقتم بي فمن المؤكد أنني سأقتلكم». غادرت وهم كذلك.

(١١٨) ولكن عند المساء جاء عدد من قادة ستانلي وقالوا لي: «فيما يتعلق بنا والأوروبي، فقد انتهت مدتنا معه، ونحن مصممون على العودة». قلت لهم: «هذا لن يحدث، واصلوا رحلتكم». قالوا: «هل تريدنا أن نضيع؟» أخبرتهم أن قدره قدرهم، وأنه إذا ضاع فسوف يضيعون معاً. واصلوا قائلين: «هذا الأوروبي حقير، يحسب كل شيء، لا يعطينا ملابس ولم يعرض لنا قماشة واحدة». أخبرتهم أن يتركوا هذا الأمر لي وسأعطيهم كل ما يريدون، فقط عليهم مواصلة الرحلة. قالوا: «ماذا نفعل؟ أنت من نحترم ونهاب أما هذا الأوروبي فليس له معنا اتفاق، وعقده انتهى منذ ستة أشهر». أخبرتهم أنْ كلامهم لا يعجبني، وأنه عليهم تنفيذ ما أقول. ذهبت إلى ستانلي وقلت له: «أعطني ستة أحمال من البضاعة». أعطاني تسعاً. دعوت الرجال وقلت لهم خذوا الملابس. أعطيت الأعلى رتبة ست قطع وللأدنى أربعاً. وأعطيت القادة الأعلى تسع قطع لكل واحد منهم، مما يعني أنه لم يبقَ إلا القليل أعدته إلى ستانلي. وافقوا على الانطلاق بسرعة. أخبرت ستانلي أن يتحرك. كان مبتهجاً للغاية، وقال لي بأسلوبه الكاذب: «لا أعرف كيف أكافئك على طيبتك، ولا أعرف كم أعطيك. ولكن عندما أعود إلى أوروبا سأحصل على مكانة وغنى كثير. سأحضر لك ساعة يد

قيمتها ألف دولار وعليها الألماس أما المال فسوف أحضر لك عدداً لا يحصى، ولكن لا تغادر هذا المكان وانتظرني مدة شهر حتى أجتاز بالسلامة. وإذا لم أعثر على الطريق فسأعود وسأذهب إلى رومامي (Rumami).

العودة إلى تابورة (١١٩ ـ ١٣٣)

(١١٩) وافقت وانتظرت شهراً، ولم أسمع شيئاً. غادرت إلى رومامي حيث اشتريت خمس فرسيلات من النحاس مقابل فراسلة واحدة من الخرز في كاسونجو. أراد ستانلي نصف فراسلة فأعطيته لتبقى أربع فرسيلات ونصف. ذهبت إلى رومامي. نهر رومامي فاض حتى عن مانيما (Manema) وأخيراً اتحد بالكونجو. عندما وصلت إلى رومامي فرسيلاتي الأربع ولدت مائتي فراسلة من العاج.

صنعت أساور، ثلاثة أرطل من النحاس مقابل خمسة أساور، وإسوارتان مقابل قرن من العاج. انتهت تجارتنا في شهر واحد. أخيراً صادفت موقعين للفلاحة، تتوزع خلالهما الخيام، كانت قديمة وصغيرة. أخذتها من قبضة القائمين عليها وأدخلت آخرين. وبعتهم الاثنتين بقرنين من العاج، قرن لكل واحدة، زنة كل قرن فرسيلتان وربع. في ذلك الوقت لم يكن السكان يقايضون بالعاج. كانوا يصيدون الأفيال ويأكلون لحومها ويستخدمون العاج في منازلهم لنصع حواجز، إلى جانب أشياء أخرى، كانوا يدقون به الموز ويسحقونه ثم يطبخونه ويأكلونه. أما البعض فكانوا يصنعون منه

مزامير موسيقية[١]، وبعضهم يرميه بالغابة حتى تأكله الجرذان وحيوانات أخرى. وبعضها يتعفن مسبباً رائحة كريهة أثناء فساده.

(١٢٠) عدنا مع الانتهاء. ومن الوقت الذي تركنا في رومامي وحتى وصلنا الكونجو كنا في قتال كل يوم، والطريق كانت سيئة. ثم وصلنا الكونجو فكان هناك سلام. هرب الواجينيون (Wagenia) إلى الجزر. ناموا على الضفة بلا منازل وكنا في قتال مستمر. سهامهم صغيرة ولكنها مسمومة. يقتل حتى الجرح الصغير. لم تنته تلك المناوشات حتى وصلنا قرب نينجوي (Nyangwe) بعد أربعة أيام، هناك فقط توقف القتال. وصلنا نينجوي دون خبر مسبق ولم يعرفوا بوصولنا حتى الظهيرة عندما أطلقنا النار عدة مرات. كانوا سعيدين جداً بوصولي وسألوني عن الأخبار[٢]. أعطيتهم الأخبار من أولها إلى آخرها.

نمت ليلتي وفي الصباح التالي ذهبت إلى كاسونجو راكباً عبارة مدة يوم كامل بنهاره وليلته لأصل في الصباح التالي إلى مينائنا. من النهر إلى مدينتنا كاسونجو التي بنيناها خلف النهر مسافة ساعتين ونصف. وصلت المدينة وهناك كان فرح عظيم بوصولي.

وجدت عدداً من الوكلاء متجمعين، جاء بعضهم من إباري (Ibare) وكاسونجو روشي (Kasongo Rushie) والبعض الآخر من

---

(١) من الطريف هنا أن نشير إلى أن الأصل استخدم لدلالة على هذه الآلة كلمة من اللهجة العمانية وهي البرغوم (Barbum).

(٢) ربما على العادة العمانية التي يكون فيها السؤال عن الأخبار لمعرفة ما حدث وإشارة لتقدير المسؤول.

مريما، وكان هناك مجموعة من أصدقائي، وقد أحضروا كمية كبيرة من العاج. جاءوا لمعرفة أخباري وغادروا مباشرة ليحملوا الأخبار بقدوم حمد.

(١٢١) ثم إن محمد بن سعيد المرجبي، بوانا سيجي قال لي إنه يرغب في الذهاب إلى ماريرا (Marera) وإباري وكاسونجو روشي. أعطيته رجالاً لأخذه إلى هناك وأخبرت جميع الزعماء، «هذا الرجل الذي يصلكم هو أخي محمد بن سعيد بوانا سيجي. قدموا له الطاعة. وأعطوه ما عندكم من عاج وسيقوم بإرساله». أعلمت موينى دادي (Mwinyi Dadi) صاحب إباري ومقاطعة ماريرا أن محمد بن سعيد المرجبي في طريقه وأنه يحظى بكل الصلاحيات، وأعلمت جميع السكان بأن يقدموا له الطاعة.

غادر محمد ومعه الرجال، وعندما وصل إلى ماريرا ثم إباري أسعدته البلاد كثيراً ووجدها مسالمة فقد أظهر له السكان وداً كبيراً برجالهم ونسائهم، وكانت البلاد رائعة.

لم يعد محمد وإنما أرسل إليّ قائلاً: «اتركني هنا وسأقوم بإدارة أعمالك». تركته فبقي هناك يبعث العاج عندما يجده.

(١٢٢) أمّا أنا فقد بقيت ستة أو سبعة أشهر ثم غادرت. سافرت بعيداً ثم عدت. لم أبقَ في مكان واحد، وفي كل مرة كنت أنتقل من مكان إلى آخر دون أن أبقى في بقعة واحدة أكثر من شهرين أو ثلاثة أشهر.

مرت سنتان ونصف وفجأة دون خبر ظهرت مجموعة من

الساحل يحملون إليّ بنادق أحدها متعدد الطلقات، يطلق أحد عشر طلقة [في المرة الواحدة]، ومسدس وبندقية ذات فوهتين، ومعها ملابس جاهزة. البندقية الأولى مرسلة من قبل السيد برغش، مع العلم أنني لا أعرفه شخصياً ولم أسمع بخبر تنصيبه. والملابس مرسلة من قبل تاريا توبان وكذلك البندقيتان الأخريان. الأخبار من قبل السيد برغش تأمرني بأن آتي إلى الساحل فور قراءتي الرسالة. أما صديقي تاريا توبان فقد أقرضني بضاعة لمدة سنتين وقد مضى الآن أحد عشر عاماً. أليس عليّ العودة الآن. صديقي ستانلي وصل وذهب إلى أوروبا[1] ووصلت رسالتي معه. جاءتني رسالة من تاريا توبان أيضاً.

قرأت رسائل تاريا وستانلي. من بين السبعة آلاف دولار الخاصة بين والتي وعد بها دفع من فيض كرمه ثلاثة آلاف مقابل الخدمة التي أسديتها له! أرسل أيضاً صورة له، ذلك هو كل ما أرسله إليّ. كنت أقول لنفسي: «عندما يعود إلى أوروبا سينال ثراء وسيدفع لي ما أستحق وبالعملة الصعبة. وعندما عاد الآن لم يرسل إليّ حتى بالتحية. أما المبالغ فدفع ثلاثة آلاف من أصل سبعة آلاف، وكذلك بعث بالصورة، ذلك كل ما دفعه لي.

(١) في الأصل السواحلي ترد كلمة العلاية (Ulaya) للدلالة على أوروبا. كما تستخدم أيضاً للدلالة على المدن وهي بذلك تساوي كلمة عربية أخرى مستخدمة في اللغة السواحلية أيضاً هي كلمة الولاية. والطريف أن المؤرخ العماني سعيد المغيري الذي كتب مؤلفه في زنجبار وعنها يستخدم مصطلح الولايات الأوروبية في مواطن عدة. وهذا المؤلّف كتب باللغة العربية مما يشير إلى الكيفية التي انتقلت بها تلك الكلمتان العربيتان.

(١٢٣) لم أقل شيئاً. والرسل الذين أتوا صرفتهم، بقيت عاماً ثم قررت الرحيل. كانت لدينا كمية كبيرة من العاج. تركت وكلاء في ماريرا وكاسونجو. وتركت معهم محمد بن سعيد المرجبي، بوانا سيجي. كمية العاج كانت مذهلة. تقدمت مسافة أربع ساعات، أرسلت الرجال عائدين ونمت. في الصباح لحقت الكمية المتبقية من العاج، ذهبت إلى مكان آخر. وهكذا، والرحلة من مانيما (Manyema) إلى متوا (Mtoa) والتي تستغرق عادة شهراً أخذت منا ستة أشهر.

وصلنا متوا وصادفنا أوربيين، أحدهما منصِّر والآخر طبيب. وقد خلقت صداقة معهم وأولوني احتراماً كبيراً. تلكأت مدة في متوا، وأرسلت محمد بن سعيد إلى بحيرة تانجانيقا ليرى أقاربنا وبالإضافة يطلب معلومات عن تابورة وكذلك عن تحركات ميرامبو (Mirambo). في ذلك الوقت كان الطريق عبر بحيرة تانجانيقا خطراً. وتداهم الواحد غابة حتى يصل إلى تابورة. أريد قوارب تنقلنا إلى هناك.

(١٢٤) بعد خمسة عشر يوماً عاد محمد بن سعيد بالأخبار أن طريق تابورة خطر جداً، وأن القوارب آتية، وتابع: «أقاربك يسألون عنك ويريدون منك الذهاب إليهم أو أنهم سيأتون لرؤيتك». قلت: «إذا جاءت القوارب فقد عزمت على السفر عن طريق كافين يندي (Kavende) ومعي البنادق ومن قرون العاج الصغيرة ما يبلغ مائة فراسلة. عندما أصل تابورة فسوف أشتري بضائع ومؤناً ورصاصاً.

قررت الانطلاق. جاءت القوارب ومعها خمس وعشرون عبارة

تقريباً. غادرنا ومعي البنادق ومائتا فراسلة من العاج. تركت هناك محمد بن سعيد وسعيد بن سلطان الغيثي. في طريقنا أتينا إلى كابوجا (Kaboga)، أو تجاوزناها بقدر بسيط. هنا قررت الذهاب إلى أوجيجي على البحيرة لرؤية أقاربي. ثم أعود وأواصل الرحلة إلى تابورة عن طريق كافيندي.

خلَّفت رجالي والعاج والمؤن وذهبت إلى أوجيجي. وبالسفر المتواصل طوال الليل على القارب بلغت في الصباح التالي وقصدت محل موينى هيري (Muiynyi Heri)، وهو رجل من ساحل مريما، وكان من أكابر العرب، وفي أوجيجي قصدت أيضاً رجالاً من ساحر مريما.

(١٢٥) ظهر محمد بن خلفان روماليزا (Rumalisa) لم أكن أعرفه وقد رأيته مرة ولكن كنت أعرف أن علي بن عيسى اختاره شريكاً له. كان عليّ صديقاً حميماً لنا، وهو تاجر أخي محمد بن مسعود. وحتى أنا في الماضي، وقبل أن أحصل على بضائع من توبان، أخذت بعض البضائع منه. عندما وصل محمد بن خلفان ألحّ عليّ أن أذهب معه إلى المنزل. وافقت، وسمح لي بالذهاب إلى موني خيري (Mwinye Kheri). فعل ذلك حتى لا يتسبب في زعل موينى خيري بن موينى مكو الغشاني[١] (Mwinyi Khere bin Mwinyi Ghashani - Mkuu el) ذهابي إلى بيت محمد بن خلفان جعلني أعرف الرجل للمرة الأولى. نمت وفي الصباح ظهرت جماعة من

(١) هكذا وردت في النصين السواحلي والإنجليزي. ولعلها الغساني وليست الغشاني.

تابورة قائلين ليست هناك مخاطر في الطريق. عزمنا على المرور بأفينزا (Uvinza). أخذت الطوّافات وبعثت إلى رجالي الذين ظلوا هناك، وأخذت عاجي، ذلك لأن طريق كافيندي أطول من طريق أفينزا. وصل رجالي في اليوم الثالث وقررت المغادرة.

ثم إن سالم بن عبد الله أتى ومعه وارسي عدواني[1] (Warsi Adawani)، وهو والد سالم كيتشوا (Kichwak)، ودِوْجي اسمال (Dewji Ismali)، وهو والد دِوْجي شريف يطلبون حصة سعيد بن علي بن منصور السنوية من العاج فقد كانوا أعوانه. منذ زمن بعيد وعندما كنت في متوا، توالت الرسائل من قبل السيد برغش تطالبني بتسليم أموال سالم بن عبد الله المرهوبي. دعوته للمجيء إلى متوا ولكنه سأله إذا كان بإمكاني أن أتكرم بحملها إليه في أوجيجي. وعليه فقد أتيت بها معي.

(١٢٦) عندما قررت الذهاب إلى تابورة، طلب سالم بن عبد الله أن أذهب معه. رأينا أن نبعث العاج الخاص به وبي مع رجالنا ليسبقنا إلى رواندا (Ruanda) تبعناهم في اليوم التالي. وصلت إلى رواندا ضحىً. أما سالم بن عبد الله وعندما كان في أوجيجي قال إنه سيصل ظهراً. وقبيل غروب الشمس ظهر والإعياء بادٍ عليه. هو وأقاربه تمت مهاجمتهم وسُلِبوا كلَّ شيء حتى ملابسَهم وكل ما عندهم من جليل وحقير، وعليهم الطمي.

سألته: «ماذا حدث؟» فأجاب: «حالتي كما ترى».

---

(١) هكذا ورد في النصين ولعله وارث العدواني.

والذي حدث أن اثنين من رجالي من النياموبزي ذهبا لقطع الخشب فقتلا.

في الصباح التالي أخذت ثلاثين بندقية وذهبت إلى أوجيجي لإبلاغ الخبر. وبعد ساعة رأينا زمرة من الرايات، وهوجمنا دون أي سبب. واجهناهم وقاتلناهم. بعد نصف ساعة أجبرناهم على التراجع مخلفين ستة وعشرين قتيلاً. لم نعانِ من أية إصابة بعون الله عدا الرجلين اللذين سقطا في اليوم الأول.

بنينا الأسوار وأرسلنا رجالاً لمهاجمة قراهم. في يوم واحد وحتى المساء هجموا على خمس عشرة قرية محمية دون أن أعدد القرى غير المحمية. في ذلك الوقت كانت النعمة[1] وافرةً في رواندا، قصب السكر والذرة والأرز والبقول لم تتوفر من قبل بهذه الكمية.

في اليوم التالي جاءت جماعة من أوجيجي وأنهينا القرى المتبقية. ثم غيرت عزمي في الذهاب إلى تابورة وعلى بناء منزل في رواندا. بعثت إلى القوارب والطوافات أن تأتي بالعاج والرجال من أكارانجا إلى رواندا. بقينا هناك ستة أشهر حتى فني العاج.

(١٢٧) في ذلك الوقت ظهر سعيد بن حبيب العفيفي وابني سيف بن حمد بن محمد، الذي تركته في المدرسة بزنجبار. وعندما وصل حمد بن مسعود إلى تابورة قدماً من رويمبا وإتاوا بعث برجل، هو محمد بن مسعود، إلى الساحل ليأتي بسيف بن

---

(١) استخدم الأصل الكلمة العربية نفسها.

حمد. عندما كنت في رواندا أتى به مع سالم بن عامر الوردي. أحضر معه أيضاً بعض البضاعة وقليلاً من الرصاص. جاءوا ومعهم سعيد بن حبيب. كنا سعيدين جداً برؤيتهم، جاء الكثير من الحمالين، واستخدمت رجالاً من النياموزيزي لأن عمالنا اختفوا.

أعدت نصف كمية العاج إلى أوجيجي مع محمد بن سعيد المرجبي، بوانا سيجي وأنا أخذت النصف الآخر، تركته في أوجيجي وما تبقى من العاج في منزل محمد بن خلفان، روماليزا. سعيد بن سلطان الغيثي وأنا غادرنا وبصحبتنا رجال من زنجبار وعبيدنا.

طلب محمد بن خلفان أثناء مغادرتي رجالاً مسلحين للذهاب معه ومحاربة سكان رواندا وأفينزا، ومعه موريني خيري موريني مكو وسعيد بن حبيب العفيفي. هؤلاء كانوا دعاة الحرب!

أعطيتهم أكثر من عشرين من الوانجوانا، وأناساً متمدنين من ساحل مريما وأكثر من مائة وأربعين بندقية، وكذلك عبيداً معهم الأسلحة والرصاص. أما أنا فقد غادرت مواصلاً مهمتي.

وعندما وصلنا أفينزا، تمت مضايقتنا من قبل السكان وسلطانهم كاسانورا (Kasanura)، الذي طلب أتاوة كبيرة. فأعطيته وسرق منا مائة وخمسين من عبيدنا. واحد منهم هرب من مخيمهم وأخذ مني أربعة من النياموزيزي وقتلوا دون أي سبب معقول. عزمت على الهجوم ولكن سعيد بن سلطان نصحني بعكس ذلك وأن أتحلّى بالصبر فلدينا كميات كبيرة من العاج ومعنا شباب ليس لديهم خبرة

بالقتال. تبينت حكمة كلمات سعيد بن علي[1] ووافقته. تركنا أفينزا ووصلنا تابورة سالمين، ولكن ليس دون أي مشقة.

(١٢٨) وحال وصولي إلى أنيانمبي تابورة (Unyanembe Tabora) ذهبت إلى مدينتي أتورو (Uturu) ووجدت والدي محمد بن جمعة وأخي محمد بن مسعود الوردي. أي بهجة كانت! وأيضاً أمي، زوجة والدي، نياسو ابنة السلطان فوندي كيرا. استمرت الأفراح أربعة عشر يوماً، ذُبحت الأبقار وأُعد الطعام. كان هذا زمن الفرح العظيم[2].

(١٢٩) مع وصولي إلى تابورة أرسلت جماعة إلى السيد برغش وتاريا توبان أطلب من السيد برغش بارودا، إذ كان شحيحاً بشدة. الجواب من السيد برغش جاء أن «البارود الذي تريد شراؤه تم إعطاؤه إلى وكيلك تاريا توبان، عنده ألفا رطل. الرجاء قبوله، ولا داعي للدفع». وعندما عاد الجماعة بالرسائل ذهبت وجمعت عتالين من وانيامويزي. واشتريت باروداً وبنادق حتى اكتفيت.

(١٣٠) آنذاك، أرسل ميرامبو بعضاً من رجاله إلى والدي محمد بن جمعة وقال له: «سمعت أن حمد بن محمد وصل تابورة وعاجه لا يزال في بحيرة تانجانيقا. أخبره أن يمر بقريتي دون خوف، فلا أنوي إيذاءه. عرب تابورة هم ألد أعدائي ولكن حمد بن محمد لم يكن هناك آنذاك، فقد كان في مانياما. بالإضافة

(١) ذكر سابقاً أنه سعيد بن سلطان.
(٢) من لحظات السعادة القليلة في محطات حياته المتعبة.

إلى أن جده جمعة بن رجب المرجبي هو من نصب جدي السلطان مورا (Mora) سلطاناً على أجوا. نقد بضاعته وأصبح جدي سلطاناً بطلب من جد حمد. الآن، أنت يا محمد بن جمعة بمثابة والدي ولكننا أعداء، أنت وأنا، بشكل واضح، ومع ذلك كنت أبعث رجالاً لتفقد أحوالك، أما أنت فلم ترسل أحداً إليّ، ولا مرةً واحدةً. ولكنني أريدك أن تخبر حمد بن محمد أن يأتي إلى قريته بمفرده أو مع رجاله».

أرسلت ستة من رجالي. ولكنهم عندما وصلوا كان ميرامبو (Mirambo) غائباً يقاتل سيمبا كانونجو (Simba Kanongok)، أخ السلطان موينى سيري سلطان تابورة. ولذلك وجد رجالي في قرية ميرامبو أخاه مباندا شارو (Mpanda Sharo)، الذي عاملهم بكل احترام وأهداهم أربعة قرون من العاج لي. وأعطوا أيضاً جارية لكل واحدة منهم وبعض الملابس للاستعمال. قبل أن يعودوا من قرية ميرامبو جاءت الأخبار بعودته من الحرب. لا نعرف أين سيتوجه، هل سيأتي إلى تابورة أو سينصرف لغزو مكان آخر. الجميع كانوا مترقبين. أما أنا فقد كنت، حينذاك، في رحلة إلى أوسوكي (Usoke)، على أطراف منطقة تابورة. كانت نيتي أن أتجه إلى الغابات والتي كانت، بالضبط، وجهته. أقاربي بتابورة وأيضاً الوالدان محمد بن جمعة ومحمد بن مسعود بعثوا إليّ بالرسالة التالية: «كل واحد هنا يفضل أن تقطع رحلتك في الغابة حتى يعود ميرامبو من حروبه. لا نعرف أين هو وهل سيأتي إلى هنا أم سيذهب إلى مكان آخر». بعثت إليهم قائلاً: «اليوم هو التاسع من

الشهر وغداً سيكون العاشر منه، غداً سيكون العاشر من ذي الحجة، وبعد أن أتناول طعام العيد سأرحل وكل شيء سيكون بيد الله عز وجل. ولكنني لا أستطيع إيقاف رحلتي وإلا تعرضت لخسارة فالحمالون سيكونون مبتهجين بالعودة إلى بيوتهم».

(١٣١) غادرت بعد العيد وقضيت الليل في أبعد نقطة في أسوكي. غادرت في الصباح ودخلت الغابة لأصل إلى آبار تاتورو حيث لا توجد هناك أية قرية. طبخنا الطعام وبعد صلاة الظهر استقينا ماءً لنأخذه معنا فقد كانت نيتنا أن نبيت بمكان لا ماء فيه. في الصباح التالي سنصل إلى آبار ماء وسنعد طعاماً للمساء حيث لا ماء في مكان مبيتنا. ويستمر الحال هكذا حتى يصل الواحد إلى أراضي السلطان مجومبيرا (Mgombera) حيث يدرك القرى ثانية. استمر الطبخ على هذا المنوال خمسة أيام أو ستة. وبعد مغادرة آبار تاتورو نمنا في المقام الذي وصلنا إليه بعد الظهر، ومع إنه لم يكن الموسم فقد أمطرت بشدة طوال الليل. وعندما توقف المطر استأذن رجالي في أن يطلقوا من بنادقهم التي ابتلّت من المطر ثم يعيدون شحنها بالذخيرة. وافقتهم فانطلق الرصاص من خمسمائة بندقية تقريباً.

(١٣٢) كان ميرامبو لتوه قد هزم سيمبا والوارويمبا (Waruemba)، وهم من ماراندو (Mardandu)، ومعهم حوالي أربعمائة مسلح كانت في قرية سيمبا آنذاك. هاجمهم ميرامبو وقتلوا منهم عدداً وغنموا منهم كمية كبيرة من العاج والقوة الكاملة وارويمبا. البنادق التي كانت في قرية سيمبا عددها ألفان ولالواريمبا وحدهم أربعمائة.

أما ميرامبو فقد نام دون ماء وقصده أن يأتي في الصباح إلى الآبار. ومثله كنا، فقد نمنا دون ماء وكنا نقصد أن نزور الآبار في الصباح. لم نتوقع ذلك أن يحدث، ولكن ميرامبو عندما سمع أزيز الرصاص لبنادق كثيرة قال: «لا أحد غير حمد بن محمد يطلق بنادق كهذه، لا أحد غيره. لا فائدة الآن من مقامنا هنا. اذهبوا جميعاً واستقوا الآن. في الصباح سيأتي حمد ويعدُّ الطعام هنا، وفي النهار سيرحل، وسننام قرب الآبار». لم نتوقع ذلك.

وفي الصباح حوالي الساعة الثالثة وصلنا وأعددنا الطعام. وبعدها فوراً عندما خرج رجالي إلى الغابة رأوا آثاراً لأقدام كثيرة. عادوا مسرعين إلينا وأخبرونا بالآثار التي رأوها. تبدو أنها لميرامبو وقلت لهم: «استقوا سريعاً». وقبيل الظهر أنهوا المهمة فقلت: «اشحنوا، ولكن الحمولة كبيرة جداً فاجعلوها في أقسام أصغر». صنعوا ستة أو سبعة أحمال وغادرنا معاً.

التصقنا بالمؤخرة معنا عشرون بندقية، قد توضأنا ننتظر صلاة الظهر. بعدها لحقنا بالقافلة وتسلمنا القيادة. فقط، آنذاك، سمعنا بعض البنادق تطلق صوب المؤخرة. فعدنا مسرعين. عندما وصلنا إلى المؤخرة وجدنا في النهاية أن بعضهم قد سلب أغراضاً وقتل اثنين، رأيت امرأة ورجلاً. أسرعت القافلة. بحث عن المهاجمين ولم يعثر عليهم، هربوا آخذين خمسين قطعة من الملابس. عدنا وقد أخذنا المصابين. واصلنا المسير حتى صلاة المغرب وعندها أقمنا مخيمنا ونمنا.

(١٣٣) في الصباح سمعنا إطلاقاً متواصلاً للرصاص من جهة

الآبار التي تركناها. ثم ظهر أن المهاجمين لم يكونوا سوى لصوص، لا يخضعون لسيطرة ميرامبو. في الصباح واصلنا طريقنا حتى جئنا إلى منطقة السلطان مجومبيرا (Mgombera) بقينا يومين ثم غادرنا إلى أفينزا. كنت قد بعثت جماعة إلى بحيرة تانجانيقا إلى محمد بن سعيد، بوانا سيجي. قلت له إنه على جميع رجالي الذين مع محمد بن خلفان، روماليزا والذين أخذهم لشن حرب على أفينزا وروواندا وماسانسي (Masanse) أن يعودوا. أنا مصرٌّ على الهجوم على أفينزا للمشاكل التي سببتها.

بعد ثلاثة أيام من وصولي إلى تابورة قادماً من أفينزا عاد الرجال ومعهم محمد بن خلفان الذي لم يقصر فأتى معهم بنفسه.

حرف أفينزا (١٣٤ ـ ١٤٦)

(١٣٤) قررنا إعلان الحرب على سلطان أفينزا، كاسونورا. بنى قريته على جدول مائي واحد، أو بالأحرى بين خمسة أو ستة. ثلاثة تمر عبر جانب واحد وثلاثة عبر الجانب الآخر. وبنيت القرية في المنتصف وحصِّنت بالخنادق. خلف الحاجز الأول بُني حاجز آخر وداخله جُعلت شجرتان كبيرتان. والفجوات سُدَّت بالرمل لمنع الرصاص عن الأبراج.

هذه القرية لا يمكن اختراقها أبداً. لم نعهد أن تكون القرى محصنة بهذه الصورة.

بعثت رجالاً للإغارة وعندما بلغوا هناك اجتازوا الجداول الثلاثة، وكان الماء وسط الإنسان ويزيد بعض الشيء. وعندما دنوا من الحاجز الأول كان الوافينزا مختبئين بالداخل وصامتين، ولكن عندما دنوا منه فتحوا النار فخرج الأعداء. اضطر رجالنا إلى التراجع، وقتل كثير منهم. سألنا رجالنا الذين وصلوا أولاً «ما الأخبار هناك؟». أجابوا: «لا تتوقع كثيراً منا نحن العائدين، لقد قتلوا جميعاً، سيعود منهم اثنان أو ثلاثة فقط». ومع حلول المساء كان عدد القتلى سبعة وأربعين». ضاعت بنادقهم، وبعض الهاربين رموها وعددهم ثلاثون».

(١٣٥) ظللنا يومين وفي الثالث قررت أن نتحرك ببضائعنا ونسائنا. تقدمنا حتى بلغنا الجدول حيث بنوا المخيم. في الصباح عبرنا الجدول إليهم فظهروا. قاتلناهم بشدة فتراجعوا إلى معسكرهم. في اليوم الثاني عبرنا بجميع أحمالنا ورجالنا. عبرنا الجداول الثلاثة جميعها ونصبنا خيامنا ولكن مخيمنا لم يكن محصّناً بالدرجة الكافية.

فجأة ظهر الأعداء فدفعناهم للتقهقر إلى معسكرهم. وفي كل مواجهة بيننا يسقط نصف درزن لكلا الطرفين. بقينا عدة أيام دون أن نخترق مخيمهم لحصانته.

(١٣٦) خرج بعض الأعداء سراً لطلب النجدة من ميرامبو. ولكنه رفض قائلاً: «حمد بن محمد صديقي. آسف لا أستطيع مساعدتكم». بعث ميرامبو إليّ بالأخبار. بعد ستة أسابيع وجدت الحرب قد طالت ولم نقبض بعد على المعسكر. قال لي محمد بن خلفان: «لماذا لا نذهب إليهم عبر الخندق المائي، وثم نحاربهم؟». قلت له أنه لا دراية له بفنون الحرب ولم يدخل في معارك حقيقية. إن من يذهب إلى الماء لن يعود ثانية، سيقبر هناك. وحينها ستسقط الحملة كلها. دعوت النجارين الذين عندي وقلت لهم: «اقطعوا أخشاباً عدة واجعلوها في غاية المتانة». خرجوا وأحضروا عشر طوّافات، أو ما يقارب ذلك، قوية وعريضة. جروها وقطعوها وصنعوا منها أخشاباً قوية. صففناها معاً بإحكام وصنعنا إطارات لها تكون أسفلها. وعندما قربوها من النهر صنعنا أخشاباً غيرها جعلناها في الأعلى حتى لا يتمكن الأعداء على الضفة الأخرى من مشاهدة

أولئك الذين هم خلفها. أطلقوا بعض الرصاص ولكنها اصطدمت بالخشب ولم تؤذِ أحداً. تابعنا صنع الأخشاب. وعندما فرغنا من صنعها دخلناها بأنفسنا ومعنا من انتقينا من العبيد. نحن الآن بالداخل والرجال يدفعون الأخشاب. نجحت الإطارات وتقدمنا للأمام وفتحنا النار عليهم. خرج الأعداء وحاولوا بجهد إصابتنا ولكنهم لم ينجحوا. وما زلنا نتقدم ونطلق الرصاص حتى بلغنا الخندق المائي. وهناك بدأنا بنصب معسكر لنا حتى رفعناه فقد كنا نعمل حتى في الظلام. الآن نحن نطل مباشرة على معسكرهم ولا يجرؤ أحد منهم على الخروج منه. وبداخله بيوت من القش. في المساء أشعلنا النار فيها. خرج من خرج من سكانها ومات من مات وأسرنا البعض منهم. نزعنا السلطان وأقمنا مكانه سلطاناً آخر.

(١٣٧) مضت يومان أو ثلاثة وجاءت الأخبار بوفاة والدي محمد بن جمعة. وكذلك أخبرنا محمد بن مسعود أن البارود المرسَل من قبل السيد برغش وكذلك البضاعة من قبل تاريا جميعها وصلت. وأضاف: «استخدمت حمالين لنقل العاج إلى تاريا، وأبقيت البعض منه، وكذلك أرسلت إليك جزءاً مع البارود الذي أرسلته مع بعضهم ممن هم في معية الفطن مصبح بن نجيم الشهيبي[١]، والي تنجنيقا لكنه يأخذ طريق كافيندا، وهو أطول، للخوف من ميرامبو. لذا فإنه قد يتأخر.

(١) ورد في الأصل بن نجم الشيهاني. ولعل الأصوب ما ذكرناه، وكان مصبح أحد ولاة السيد برغش في بندر السلام في شرق أفريقيا. ينظر المغيري، ص ٢٤٤.

(١٣٨) تركنا أفينزا وجئنا بحيرة تانجانيقا وشحنا العاج حتى أتممناه. عزم محمد بن سعيد، بوانا سيجي على العودة إلى مانيما. أعطيته باروداً وبضائع ولكنني نصحته أن لا يغادر حتى يأتي مصبح حيث يمكنني أن أرسل معه البارود إلى مانيما. عندما غادرتها تركت وكيلاً على أعمالي علي بن محمد الهنائي وموينى دادي بن مدوي (Mwinyi Dadi bin Mdoe) وهو رجل من ساحل مريما وكذلك معهم مادي بن فاكي (Madi bin Faki) المريمي. وكلهم يرسلون ما يجمعونه إلى موينى ماجد وهو بدوره يرسله إلى الساحل. قرر محمد بن سعيد العودة وأعطيته خطوطاً لموينى بن ناصر فيها الأمر التالي: «حامل هذا الخط الذي يصلك الآن هو وكيلي محمد بن سعيد. أعفيتك من النظر في أعمالي».

عزمت على الذهاب إلى تابورة وجعلت محمد بن سعيد ينتظر قدوم مصبح بن نجيم.

(١٣٩) ثم إن محمد بن خلفان، روماليزا قال: «أريد الذهاب إلى الساحل ولكن ليس لدي مؤونة. جئت بصحبة جمعة بن عبد الله بن سالم البرواني الذي عاد إلى الساحل وتركني مع بضاعته. ولأنني غادرت بعده، وبقيت لبيع البضاعة لم أحصل على شيء سوى أربعين فراسلة. الآن ليس لدي تموين وليس معي حمالون وجمعة بن عبد الله يبعث الرسائل كل يوم سائلاً عن بضاعته. بالإضافة إلى ذلك، رأيت رسالة من عبد الله بن عيسى تخبر محمد بن مسعود بأخذ الأهبة للإتيان بمحمد بن خلفان، وإذا لم يكن راغباً، فليطلب عاجاً من جمعة بن عبد الله».

عندما سمعت هذا القول، آخذاً في الاعتبار علاقتي الحسنة بعبد الله بن عيسى، ورؤيتي للحالة البائسة التي كان عليها محمد بن خلفان، قلت له: «حسناً جداً، تعال والنقل والمؤونة والرجال سأتكفل أنا بها». أخذته معي، تركنا محمد بن سعيد في بحيرة تانجانيقا ينتظر رجلاً اسمه مصبح. غادرنا، وصلنا متوا وجاءتنا الأخبار أن مصبح كان في النهر. وقام السكان بمضايقته طالبين أتاوة. بعثت بعض الرجال للترحيب به ومع وصولهم هدأت الأمور، حيث أن كل أصناف البشر يرهبونني. وصل مصبح وأعطاني البضاعة التي أرسلها معه محمد بن مسعود. أخذت بعضها وتركت الباقي معه ليعطيه محمد مسعود في بحيرة تانجانيقا. واصلنا سيرنا إلى تابورة ومعنا محمد بن خلفان.

مررنا بأفينزا بسلام وعندما وصلنا منطقة مجومبيرو (Mgombero) دلفنا إلى الغابة. كانت قافلتنا كبيرة جداً.

قافلة أخرى لكل العرب بينهم حمد بن سعيد الوردي وعبد الله بن سليمان الخنجري وسليمان بن حمد الرواحي وسلطان بن راشد الغيثي وحمد بن عبد الله الكثيري وسالم بن هن[1] الطوقي وسعيد بن خميس الطوقي، كلهم جميعاً حوالي عشرة من العرب، ولا أتذكر رجال مريما ربما كانوا كثرةً.

(١٤٠) حتى هذا الوقت كان الناس يخافون ميرامبو. وعلى سبيل المثال، هذا الطريق الذي نسير فيه عبر الغابة عندما تغادر

(١) هكذا في النصين.

منطقة مجومبيرا تدخل الغابة ولا تظهر إلا في أوسوكي، وهي الجزء الأقصى من تابورة. والناس لا يأخذون الطريق الذي يمر عبر القرى بسبب الخوف. دليلنا في هذا الطريق هو كاتوتوفيرا (Katutuvira) من النياموزيزي. هذا كان عمله الذي يحصل عن طريقه على أجره وهو يعبر بالناس. يعرف أين يكون الماء. وكان يقول: «سنصل إلى الماء في الوقت الفلاني»، ويصدق ذلك. الذين يغادرون تابورة يحتاجون كاتوتوفيرا وكذلك الذين يأتون من تانجانيقا. كنا نسير حتى في الليل إلى أن وصلنا البحيرة. ثم نصبنا مخيمنا حوالي الساعة الواحدة صباحاً.

قبيل الغروب ذهب بعض رجالنا للحصول على عسل من الغابة. رأيناهم عائدين ركضاً. «ما الأمر؟»، سألناهم. «ميرامبو آت للهجوم وقد أَسَرَ أربعة من رجالنا». قام رجالنا مباشرة ببناء تحصين دفاعي محكم. بعد نصف ساعة ولمّا ننجز بناء ربع المخيم جاء المأسورون وأعطونا الأخبار عن أنه بعد القبض عليهم سألهم ميرامبو رجال من أنتم؟ ردوا أنهم رجال حمد بن محمد، تيبو تيب. عندئذٍ، أطلق سراحهم وذهبوا في حال سبيلهم. آسروهم قالوا: إنهم رجال ميرامبو وإنهم في طريقهم إلى أكونوجو (Ukonogo)، وهي جزء من منطقتهم، للهجوم والسيطرة على قرية السيمبا (Simba)، وأن تعليمات ميرامبو تأمرهم أن لا يتعرضوا لحمد بن محمد، تيبو تيب.

بعد فترة وجيزة، جاءتني مجموعة تضم ثلاثين رجلاً لرؤيتي، قدموا إليّ ولاءهم وطلبوا ملحاً. أعطيتهم حمولتين. قالوا إنهم في

الصباح سيعبرون. نمنا وفي الصباح مر جمع غفير وذهبوا في طريقهم. وكذلك فعلنا.

(١٤١) كان جماعتي من العرب في خوف شديد، فاقترحوا أن نبقى إلى اليوم التالي. ولكنني قلت: «لم نبقَ في الغابة؟ لا تكونوا جبناء لهذا الحد!». غادرنا في وحي من شجاعتي. حتى الآن فإن دليلنا لم يضع طريقه من قبل، أما هذه المرة فقد فعل. لم نصل إلى موارد الماء بعد وقد دخلنا في الليل، وفي العادة كنا نصل ظهراً. ولكن تابعنا المسير بشدة حتى وصلنا حدود أنيانيمبي (Unyanyembe)، بمنطقة تابورة، بسلام إلى أسوكي، حيث بقينا مدة يومين. بوصولنا أسوكي فإن رحلة ثلاثة أيام نقلتنا إلى أتورو، وبلغنا تابورة في اليوم الرابع.

هناك وجدنا أن العاج الذي تركته أرسل إلى الساحل بطريق أخي محمد بن مسعود، كله أرسل عدا ذلك الذي حصّلته في رحلتي الأخيرة.

كانت آنذاك شحّة في الحمّالين فهذا موسم الحصاد، وتلك كانت مشكلة.

(١٤٢) في ذلك الزمن عندما ذهبت إلى أجيجي كان والدي لا يزال حياً. دعاني وقال: «لا يعرف الإنسان يوم وفاته. إذا مت فانظر إلى أمك نياسو بنت فوندي كيرا، بكلتا عينيك إذا كنت تريد رضائي». قلت: «إن شاء الله، وحتى أكثر منه في حياتك». وواصل قائلاً: «أنت تعرف عن العداوة التي بين عائلة سيكي (Sike) وأولاد مكاسيوا (Mksiwa)».

وحال رجوعي وجدت احتراماً كبيراً من نياسو التي كانت لا تمضي أمراً دون الرجوع إليّ. عندما وجدت شحّ الحمالين قررت أن أواصل مسيري تاركاً محمد بن مسعود الوردي وسعيد بن سلطان الغيثي للحاق بي تالياً.

(١٤٣) أثناء ذلك جاء رجال من قبل ميرامبو يدعونني أن أذهب إليه أو أرسل ابني. عزمت على إرسال سيف بن حمد. وعندما سمع ذلك عرب تابورة حاولوا ثنيي عن هذا، [قائلين]: «لا ترسل سيف بن حمد فإن ميرامبو سيقتله». قلت: «لا يهم». اشتريت بضاعة وبنادق وباروداً ما يقرب من خمسين حملاً وأعطيتها لسيف وخميس بن سليمان الهناوي[١] ورجل من ساحل مريما، سالم البحري، ليذهبوا معه. ذهبت عائلة خميس إلى مانيما. حمد بن راشد الحبسي وبلال بن علي الغيثي عزموا على الذهاب معه، وكذلك الخادم ود جمعة[٢]. كانوا خائفين بسبب ما قاله العرب ولكنهم عقدوا عزمهم على مصاحبة سيف.

وهكذا ذهبوا، وفي أرامبو عوملوا باحترام عظيم. دعا عرب تابورة بعضاً من النيانوزي، عشرة منهم وأعطوهم الملابس حتى يظهروا وكأنهم عائدون من رحلة قنص. قالوا لهم: «اذهبوا إلى ميرامبو وقولوا له، عندما تصل إلى هناك قادماً من الساحل فإنك سترى قوة كبيرة آتية للهجوم عليك. وما نقوله ليس مجرد كلام

(١) كتب خطأ في الترجمة الإنجليزية البناوي. وصححناه بمراجعة الأصل السواحلي.
(٢) هكذا ولدت في الأصل، وهي تخفيف لولد من اللهجة العمانية.

للمناوشة، وإنما [هو الواقع] فقد أحضر السيد برغش قوة من الأوروبيين. قولوا إنكم قطعتم رحلتكم وأتيتم لتحذيره ومناشدته أخذ الحيطة. عندما تنقلون له هذه الأخبار فسيقوم بقتل سيف ومن معه لسبب بسيط هو لماذا يظهر أي شكل من التفاهم مع حمد بن محمد؟ هل لحمد بن محمد أي دور في السلام؟ خاصة وأنه بعيد من هنا وهو في مانيما».

عندما بلغت الرسالة ميرامبو، قام باستدعاء سيف: «قل لأولئك العرب أن يغادروا غداً. آتتني من قريب بعض الأخبار، بعض الأوامر. شخصياً، أظنها أخبار كاذبة، وحتى إذا ما صدقت فإن والدك هو بالنسبة لي أخ. ولكنني فعلاً أفضل رحيل هؤلاء العرب». عند ذلك فشلت مهمة رسل تابورة وهربوا مخلّفين حمولتهم. كان ذلك فشلاً ذريعاً لهم.

(١٤٤) غادر سيف بن حمد وأخبر من معه من العرب ورجالي أن يغادروا من الغد، أما هو فكان عزمه الذهاب إلى تابورة. غادر العرب مع رجال ميرامبو.

في اليوم التالي أعطي سيف خمسة قرون من العاج تزن تسع فراسلات ونصف، وأعطي أيضاً ملابس وأحجبة رأس وعباءات وأربعة أغطية للرأس. قام (ميرامبو) باختيار ستة من رجاله وأعطاهم لسيف للحراسة. ثلاثة منهم يتمنى هو أن يرافقوا حمد بن محمد إلى الساحل لإخبار السيد برغش أنه نتيجة لزيارة حمد بن محمد له لم يعد راغباً في استمرار الحرب. إنه يعتبر حمد أخاً ويتمنى - بمشيئة الله - أن لا تقوم الحرب ثانية. وواصل [في رسالته قائلاً]:

«أعطيت أوامري بالسماح لحمد بن محمد أن يعبر خلال الأراضي. وعلى ذلك إذا كان لا بد من الحرب فهؤلاء الثلاثة رجال الذين سيذهبون معه إلى الساحل سوف يحملون الأنباء إليّ. وإذا لم تقم حرب فهؤلاء الرجال سيأتون إليّ أيضاً ويخبرونني».

سألت عن الحرب وعن مكيدة أهل تابورة، الذين انكشفت فضيحتهم مع ميرامبو. لقد أغضبهم ميرامبو ولم يستمع إليهم وذلك سبب تضايقهم. أعدت رجال ميرامبو وقلت لهم لن تكون هناك أي حرب. أنا ومعي الثلاثة رجال قررنا الذهاب إلى الساحل، وتركت محمد بن مسعود وسعيد بن سلطان.

(١٤٥) بالضبط أثناء مغادرتي برز وايزمان في تابورة وجاء حاملاً معه رسائل من أقاربي وعمّالي. جاء بوانا وايزمان من كاساي (Kassai) وعبر رومامي إلى منطقتي ليصل إلى الكونجو حيث السلطان كافامبا (Kavamba) أتوا به إلى نيانجوي وإلى ماكن تبعد كبعد بحيرة تانجانيقا. وصل تابورة وسأل أين تيبو تيب. أتوا به إلى أتورو حيث التقينا: «كنت أبحث عنك» قال، «تركت كاساي وذهبت إلى مانياما، لكنك كنت قد غادرت. رجالك أسبغوني احتراماً كبيراً. حيثما سرت وذكرت اسمك فإن كل ما أريد أن يتحقق لي. الآن أصل هنا دون تموين ودون أي شيء. أعطني بضاعة وسوف أدفع لك عند عودتي إلى الساحل». قلت: «اطلب ما شئت!».

أخذت معي محمد بن خلفان متحملاً نفقة رحلته ورجاله. غادرنا ومع وصولنا إلى أجوجو (Ugogo) استقبلت قافلتنا خمسة

عشرة من العرب أو أكثر. أصر الواجوجو (Wagogo) أنه على الأوروبيين فقط دفع الفدية. كانت هناك مجاعة شديدة. دفعت غرامات كثيرة بينها بعض العبيد ولكنني لم أقل كلمة لبوانا وايزمان.

(١٤٦) عندما وصلنا إلى مبوبوا (Mpwapwa)، طلب وايزمان مني بضاعة وتموينا. أعطيته إياها. غادر سالكاً طريق مامبوجا (Mamboja)، وقال علينا أن نلتقي في الساحل. ذهبنا عن طريق أساجارا (Usagar)، بعثت محمد بن خلفان إلى الساحل برسائل إلى السيد برغش وتاريا توبان. كنا قريبين من الوصول عندما جاءنا محمد بن خلفان بالردود من السيد برغش وتاريا توبان.

وصلت بجامويو (Bagamoyo)، وتركت الرجال والعاج مع جان محمد هانسراج الهندي مساعد تاريا توبان والمسؤول عن شؤوننا في ساحل مريما.

زنجبار، والعرض البلجيكي (١٤٧ ـ ١٥١)

(١٤٧) غادرت في التاسع من محرم، ووصلت زنجبار الساعة العاشرة مساءً. وصلت عند تاريا في ليلة العاشر. سألني: «هل تريد أن تكون والياً على تابورة؟». «لماذا تسأل؟» قلت له. «لأن السيد برغش أخّر والي تابورة، عبد الله بن نصيب حتى يجعلك مكانه». قلت له: «أنا سلطان كبير على مانيما فلم أقبل أن أكون والياً؟» حذّرني تاريا، «إذا عرض عليك السيد برغش أمراً فإياك أن ترفضه وسأتحدث إليه لاحقاً، فطبعه أنه إذا عرض شيئاً على رجل ورفضه فإنه يأخذ موقفاً منه». قلت: «حسناً». ثم إن محمد بن مسعود بن علي المغيري أتى لزيارتي في المساء وأخبرني عن موضوع الولاية.

(١٤٨) نمت وفي الصباح ذهبت إلى تاريا الذي قدم إليّ كانجي راجبار الهندي (Hindi ـ Kanji Rajbar el)، كبير موظفي تاريا. كنت في مرة من المرات عندما وصلت إلى تابورة من مانيما رأيت أوروبياً، بلجيكياً في منزل السيد ب، وهو بلجيكي أيضاً. هذا الأوروبي كان صديقاً مقرباً إلي. لم أكن أعرف اسمه آنذاك. حسناً، جاء هذا الأوروبي ودعا الموظف وقال لي: «أريد أن ننفذ رأياً. عليّ البنادق والبارود وعليك الرجال. عد إلى مانيما، والفائدة

تقتسم بيننا بالتناصف». أجبته: «أنا من رعايا السيد برغش وأرض مانيما التي أحكمها هي وأنا تحت تصرف السيد». قال لي: «لا علاقة لي بالسيد، أنت سلطان مانيما الذي بيده التصرف الكامل. إذا وافقت فذلك أمر جيد وإذا لم توافق فلا بأس، إنس الموضوع». قلت له: «لا أستطيع عمل شيء إلا بموافقة حاكمي»، وخرج.

(١٤٩) في اليوم الثاني من وصولي إلى زنجبار رأيت السيد في الساعة الأولى من الصباح وسأل ما أخبار البر ومانيما. قلت: الأخبار جيدة. عليّ أن أقول إنها المرة الأولى التي أرى فيها السيد برغش. ابتدأ حكمه منذ أن تركت زنجبار قبل أربعة عشر عاماً. أعلمته الأخبار وبما حدث من عرض ذلك البلجيكي. قال: «كنت أريد أن أعطيك ولاية تابورة، ولكن من الأفضل أن تغادر إلى مانيما دون أن تمكث هنا»[1]. سألت عن بقية العاج الذي لا يزال في تابورة. «قرر الآن وأخبر أخاك أن يأتي بالعاج، أعتقد أن محمد بن مسعود سيقوم باللازم!»، قال السيد ووافقته.

في ذلك الحين كان بعض البلجيكيين قد وقع لأخذ خمسمائة أو ستمائة من الحمالين إلى الكونجو، فلم يسمح له بأخذهم. وتقدم إلى القنصلية البريطانية واستطاع الحصول على بعض الحمالين الأحرار، وأعيد العبيد.

(١٥٠) عندما انتهت المقابلة طلبت الرخصة وقيل لي أن أذهب

---

(١) لماذا يريده الابتعاد عن زنجبار؟ يبدو أنه خشي أن يحاول البلجيكي اجتذاب تيبو تيب.

إلى تاريا. وحين وصلت هناك برز ثلاثة رجال أحدهم يحمل ألفي روبي، والثاني صرة ملابس جاهزة، أحجبة وشالات وأجواخ وعباءات، وأيضاً خنجراً وساعة من الألماس وساعة ذهب. تعجب كل من رأى ذلك. وتلك الأثناء جاء عبد الله بن نصيب الذي لا يزال حتى الآن والياً على تابورة. عندما رأى [الهدايا] تسمَّر في مكانه وقبيل مغادرتي دعاني إلى منزله وقدم لي القهوة. «حسناً»، قال: «هل جعلك السيد برغش والياً على بحيرة تانجانيقا؟». قلت له: «ألا تعرف أن سلطنتي هي مانيما، وهي أكبر من أنياموزي، كل تابورة وأرض السكوما (Sukuma) وجميع أطراف النياموزي؟ هل سأرغب في الولاية؟». بعد ستة أو سبعة أيام مات عبد الله بن نصيب[١].

في اليوم ذاته وصل بوانا وايزمان عند شركة اسفال (Asfal)[٢] وحسب البضاعة التي أخذها مني فوصلت ثلاثمائة دولار. حسبت البضاعة التي أعطيته إياها في تابورة ولم أذكر شيئاً عن أمر الأتاوة. سأل: «هل بقي عليّ شيء؟»، قلت: «لا شيء». أحضر إليّ الثلاثمائة دولار ولكني طلبت منه أن يحتفظ بها وأن يأتي إليّ ببندقية عندما يعود من أوروبا بتلك القيمة.

(١٥١) حينما كنت في زنجبار كان القنصل الإنجليزي موجوداً هناك أيضاً، وهو ذلك الرجل الأعور. لا أعرف اسمه[٣]، ولكن

(١) هناك تأويلات مختلفة حول موته. ينظر رزق.

(٢) (firm of, O'Swald and co) وايتلي.

(٣) Lt. Col. S. B. Miles acting for Sir J. Kirk وايتلي.

دونه رتبةً السيد هوم[1] (Home). عاملوني باحترام شديد، كذا قضت مشيئة الله. كل واحد منهما أهداني بندقية ومنحني شرفاً عظيماً. كان السيد برغش يحضني على المغادرة ولكن قلت له إن الحمالين قليلون جداً. حينها، أصدر أمراً يمنع أن يتعاقد أي أحد مع الحمالين حتى أنهي أنا حمد بن محمد مشاغلي.

تاريا من طرفه فتح لي بيته وكان [يترجاني] أن آخذ كل ما أريد. شحنت الكثير من البضائع وكنت أبعث بها يومياً لي باجامويو. قبل أن أغادر ظهر السيد جون كيرك (John Kirk)، تعرفنا على بعضنا البعض منذ زمن طويل، وكان صديقاً عزيزاً. سألني كيف تسير الأمور في أجوجو، قلت له إنها سيئة جداً. قال: «لماذا لا تقترح على السيد أن تبسط نفوذك على أجوجو». لقد اقترحت ذلك على السيد وطلب مني أن أترك جميع الأمور وأذهب إلى مانيما.

---

(١) Holm wood وايتلي.

السفر إلى شلالات ستانلي (١٥٢ ـ ١٦٥)

(١٥٢) قبل أن أغادر وصل محمد بن مسعود الوردي ومعه كل العاج الخاص بي. جاء بخبر وفاة سعيد بن سلطان قبل وصوله زنجبار. ومع وصول محمد بن مسعود تأخرت قليلاً بنية بيع العاج. أخبرت علي عيسى أن يعطي قريبه محمد بن خلفان بضاعة فرفض إعطاءه قائلاً: «لا أستطيع أن أعطيه أي شيء فهو لا يحسن التجارة». وكذلك رفض جمعة بن عبد الله أن يعطيه مالاً. قلت لمحمد أن يتبعني وأعطيته من خاصة بضاعتي وأخذته معي. لم يكن أحد في زنجبار ولا في ساحل مريما يثق في أن يعطيه ألف ريال ولكنني فعلت ذلك.

(١٥٣) وصلنا تابورة في موسم الحصاد حيث يشح الحمالون. أخذت محمد بن خلفان وأخاه ناصر بن خلفان. وفي الوقت ذاته الذي وصلت فيه تابورة وصل وكلائي خميس بن سليمان النبهاني وسالم البحري. أتوا بمائتين وخمسين فراسلة من العاج وبأخبار محمد بن سعيد، بوانا سيجي. عرفت أن عمالي من المنياما في وضع ثائر ولا يصغون لأوامره، وهو غير قادر على السيطرة عليهم، وقد أرسل إليّ قائلاً إنه إذا كانت لدي بضاعة كثيرة فعليّ تركها وأن

آتي بعمال لنقل العاج وإلا ضاع جميعه. فقد ضاع أكثره حتى الآن. وإذا لم أحضر بنفسي فسيضيع كل شيء. يقول أيضاً: «البضاعة تحتاج جهداً ووقتاً أما العاج فإنه حاضر ومتيسر».

(١٥٤) عزمت على السفر مباشرة ولكن عزّ علينا الحصول على عمال. بعثت رجالاً إلى ميرامبو الذي لم يخذلني وأرسل إليَّ مائتين. أخذت معي البارود والبنادق والقليل من البضاعة.

تركت البضاعة في تابورة، وأخبرت محمد بن خلفان أن يأخذ العاج الذي وصل من المانياما إلى الساحل، ثم يشحن البضاعة من الساحل لنقلها إلى المانياما وقيمتها ٨٠٠٠٠ دولار.

غادرت وعبرت قرى ميرامبو. حاول أناس تابورة ثنيي عن ذلك قائلين: «إنك إن ذهبت إلى ميرامبو فإنه حتماً سيقتلك». رددت: «لا يردني ذلك». ثم إن بعضاً منهم ذهب إلى ميرامبو وقالوا: «حمد بن محمد قادم للهجوم عليك». والحاصل أن الحسد فعل فعله فيهم.

ذهبت وتلاقينا حال وصولي. قابلني بتكريم عظيم وولدت صداقة عظيمة. أعطاني ميرامبو خمس عشرة فراسلة[1] من العاج وقد أعطيته بالمقابل بندقية متعددة الطلقات وحمولتين بضاعة وباروداً. بقيت هناك ستة أيام وفي السابع قال لي: «أرسلت عاجاً إلى السيد برغش ولكنه رفضه. وأريد الآن أن أرسل إليه أربعين وخمس لتاريا وثلاث لمحمد هانسراج وثلاث غيرها لناصر بن سليمان».

---

(١) عند وايتلي خمسين فرسيلة. وفي الأصل ترد خمس عشرة وكتبت باللفظ العربي.

(١٥٥) بعد أن غادرت أرامبو ذهبت إلى أجيجي من بحيرة تانجانيقا. وبالمرة واصلت السفر إلى مانيما في السابع والعشرين من رجب. هناك شاهدت هلال حادي وفي الأول من شعبان تركت كاسونجو ووصلت إلى نيانجوي في الثاني منه. بقيت هناك لأسافر في اليوم الرابع مدة يومين وأصل إلى ماريرا.

وحال وصولي إلى منطقة السلطان روسونا أعددت جيشاً دحرت به المتمردين في أكوسو (Ukusu) وجانباً من رومامي، حاربتهم طيلة ثلاثة أشهر حتى اندحروا مستسلمين. عرفت أن موينى دادي (Mwinyi Dadi)، الرجل الذي من ساحل مريما والذي عيّنته على هذه المناطق، قد توفي، وأن عبدي الصغير نجنجورو تيتا[١] (Ngunguru Tita) صار في مكانه. ووجدت جميع القاطنين يعصونه فقلت لهم: «هذا الرجل الذي تعصونه هو في موقع المسؤولية بإرادتي وكل من يعترضه سأتولى أمره حتى يذعن له». أصبحوا يرهبونه جميعاً.

(١٥٦) في هذه الأثناء جاءني خطٌّ من جمعة بن سالم، مريكاني الذي تركت عنده العاج يقول: «لقد اعتقلني سلطان أروا، وكبيرهم هو كاسوجو كارونجو (Kasongo Karombo) وله يخضع جميع الواروا. لقد احتال علي بالطريقة التالية. قال إن في منطقته الكثير من العاج وبعث رجاله لأخذي إلى أروا حيث موضع رئاستهم. عندما وصلت وجدت جميع الواروا خائفين من إحضار ما لديهم من

(١) انظر الفقرات ١٦١ ـ ١٨١ ـ نجونجو رويتاتا Ngongo Ruweteta هو الرجل نفسه.

عاج خشية أن ينهب. كثير من بضائعي سرقت وأخذت عشرة قرون من العاج. هنا لم يأذنوا لي بالرحيل. والمراد من فضلك أن تأتي وتفك أسري».

وقد بعث أيضاً بخط آخر إلى جماعة نيانجوي فبعثت إليهم أن لا يذهبوا فقد عزمت على التوجّه بنفسي. بعثت رجالاً إلى كاسونجو وعادوا ببارود وخرز.

(١٥٧) عقدت العزم على الذهاب إلى أكوسو لشراء النحاس الذي يكثر هناك. عبرت رومامي وذهبت إلى السلطان روبونجو (Rupungu) وهو من رجالي. سرت حتى وصلت إلى أكوسو وأقمت بها شهراً (أو قضيت شهراً في الطريق إليها). توجد في هذه المنطقة قرى كبيرة وطعام وافر. ولكنني حيثما توجهت خلال القرى فإن الناس يهربون تاركين بيوتهم وطعامهم لي.

وفي طريق العودة مررت ثانية بتلك القرى وتكرر الأمر نفسه حتى وصلت أكوسو. مات لقب تيبو تيب وحلّ محلّه مكانجوانزارا (Mkangwanzara) أي الذي لا يرهب أحداً، ربما يخاف الناس المجاعة ولكن ليس الحرب[١]. عندما يسمع القاطنون هذا اللقب فإنهم يهربون. اشتريت سبعمائة فراسلة في ستة أيام. وكانت المقايضة أن فراسلة الخرز تقابلها خمس فرسيلات أو خمس فرسيلات ونصف من العاج.

---

(١) يختلف النصان قليلاً هنا فالجملة الأخيرة في النص السواحيلي تبدو جزءاً من الإسم وفي الإنجليزي جملة مستقلة ليست جزءاً من معنى الاسم. وقد اعتمدنا النص الأصلي هنا.

(١٥٨) عندما فترت التجارة توجهت شمالاً حيث السلطان كاسوجو كارومبو. سرت مدة أحد عشر يوماً وسط القرى الكبيرة حتى حيث يوجد جمعة بن سالم الملقب بمريكاني. في هذه القرية حوالي ثلاثة آلاف رجل وربما يزيدون كلهم سكارى عدا واحد مسلم واسمه موسى، ولدى مقامي، الذي كان صاحياً. سرت إلى البرزة[١] حيث نجح جمعة بن سالم في جر نفسه حتى بلغني وسقط نائماً.

(١٥٩) في الصباح بعثت خبراً إلى السلطان أقول له: «أتيت في أثر أخي. أحضر إليّ العاج الذي أخذته وكذلك الخرز الذي لجمعة بن سالم التي اختفت وإلا فسأهاجمك». أتى لي بالعاج وبجميع خرز جمعة. وأهدى لي عشرين قطعة من العاج. وأعطيته في المقابل بعض الهدايا. بقيت هناك عدة أيام ثم قررت الرحيل. قال جمعة: «أنا لست مستعداً للرحيل ولكنني أريدك أن تضغط على السلطان وقل له إنني أخوك وعليه أن يحسن معاملتي وإلا فليتوقع الهجمة من قبلي. وإذا أردت المغادرة فعليه أن يخلي سبيلي». أخبرت السلطان بذلك فقال ليس بيننا وبينه نزاع ونحن وأنتم في سلام.

(١٦٠) وفي كل تلك القرى يرى الواحد ثلاثمائة رجل أو أربعمائة ممن هم مجدوعة أنوفهم أو مقطوعة آذانهم وأياديهم. كل واحدة من هذه القرى تخضع لأكبر سلاطين الواروا رونجو كاباري.

---

(١) في الأصل ترد هذه الكلمة العربية وترجمت إلى Courthouse.

كان محارباً عظيماً وهاجم وغزا جميع أجزاء أروا وإراندي (Irande) ومانيما والضفة الأقصى لروماري. يشكّل أولئك الذين قُطعت أنوفهم وأيديهم وآذانهم مقدمة جيشه لطاعتهم ولإذعانهم. وكانت هناك فرق فيها ما يبلغ سبعة آلاف أو يزيد مستعدين للقتال. تمكن مشاهدتهم هناك، هؤلاء الواروا المساكين. لم تضعف قوتهم إلا بعد موت رونجو كاباري. أبناؤه الذين خلفوه انقسموا فيما بينهم فتلاشت قوتهم. ولكن في أيام قوتهم كانوا قد بلغوا متوا ولم يوقف زحفهم إلا بحيرة تانجانيقا. وإلا وصلوا إلى أجيجي.

(١٦١) ودعت جمعة بن سالم وذهبت في سبيلي حتى أتيت كاسونجو روشي. أعطيت نجونجو الكثير من البنادق وفي طريقي أظهر رعاياي الإخلاص التام. وضعت تحت تصرف نجونجو ما يقارب ألف بندقية علماً أنهم لم يعرفوها من قبل. لم أرَ عبداً بمثل إخلاصه، فكل ما يجده يأتي به إليَّ. أخبرته بجميع أعمالي وتركته مسؤولاً عن مملكتي. ذهبت إلى نيانجوي ووصلت قريتنا وبقيت مدة شهر، خلفت سيف بن حمد ومحمد بن سعيد، بوانا سيجي.

(١٦٢) بقوة قوامها ثلاثة آلاف مسلح وستة آلاف دون سلاح غادرت متوجهاً إلى شلالات ستانلي. وقريباً من قريتنا شاهدت اثنين من الأوروبيين أحدهما اسمه السيد ف والآخر السيد ج[١]، كلاهما من السويد. تفاهمنا كثياً. قال أحدهم: «هذا أخي يريد الذهاب إلى زنجبار عن طريق تابورة، ولكن ليس لديه حمالون وليس لديه أي

(١) أحدهما هو السيد جليروب Gleerup الذي يعمل في المنظمة الدولية.

شيء». قلت: «لا بأس[1]، سأعطيه طوّافات من هنا وعندما يصل إلى كاسونجو سيُعطى مؤونة، قدر ما يشاء، وحمالون تكفيه حتى يبلغ الساحل. المخسور كله عليّ حتى يبلغ زنجبار». غادر ووصل الساحل. أعطيته خطاً إلى القنصل البريطاني وآخر إلى السيد برغش. عومل باحترام بالغ ثم رحل إلى أوروبا.

(١٦٣) وعندما بلغت شلالات ستانلي صنعت عشرين قافلة وجعلت على أكبرها سالم بن محمد ومويني أماني (Mwinyi Amani)، وهو شاب من ساحل مريما. أعطيتهم كمية كبيرة من الشبه وأمرت بالتوجه إلى رومامي، ولكنهم لم يجدوا عاجاً، نزلوا صوب الكونجو ثم ارتفعوا ناحية أسوكي[2]، وهي رحلة خمسة أيام إذا كان التيار قوياً. وصلوا قرية كبيرة هرب ساكنوها. ناموا هناك ولكنهم عند المساء، وعلى غير توقّع، هوجموا ففقدوا ما يزيد على خمسمائة رجل. عاد رجالنا خائبين. عادوا إلى شلالات ستانلي وليس معهم حتى فراسلة واحدة من العاج. في الحملة الأخرى عاد الرجال ومعهم العاج ويبلغ في جملته ألفي فراسلة.

لم تنقطع رسائل السيد برغش إليّ يريدني أن ألاحظ كل الأمور هنا، فقلت له: «إذا كنت تريدني أن أهتم بالأمور هنا فأرسل إليّ الرجال والذخيرة، ودون هذه يستحيل عليّ عمل أي شيء». ثم كتب إلي يطلبني أن آتي إليه على وجه السرعة.

---

(١) في الأصل السواحلي استخدم كلمة عربية هنا «لا يضر».
(٢) على نهر أرويمي Aruwimi.

(١٦٤) عندما وصل العاج غادرت إلى نيانجوي ثم إلى كاسونجو. هناك وجدت تسعمائة فراسلة من العاج والتي اجتلبت من مناطق مريرا وكاسونجو روشي وروماmي، ثم أرسلت عن طريق نجونجو. وعليه فقد قمت بجمع حمالين لأخذ الأحمال إلى بحيرة تانجانيقا.

ثم إن محمد بن خلفان، روماليزا بعث تعريفاً[١] أن ناساً من بحيرة تانجانيقا يريدون إخراجه من مناطق أروندي وأفينزا ومسانزي، وأن كل البضاعة التي تركتها معه هي الآن في أفينزا. ويسأل إذا كنت أستطيع أن أرسل إليه عبيداً وسلاحاً. أرسلت إليه خمسمائة بندقية ورجل كل واحد منهم ببندقيته، وأرسلت إليه أنني في الطريق فإذا كان في أفينزا فسنلتقي في أجيجي.

(١٦٥) غادرت كاسونجو لأصل أجيجي وأقابل محمد بن خلفان، روماليزا. سألته فيما إذا كان قد حصل على عاج، فقال إنه لم يكن لديه وقت للتجارة. غادرت ثانية متجهاً صوب تابورة.

في أجيجي وجدت عمالي من النياموزي، وأعطيتهم العاج لنقله فلم يبقَ إلا القليل. أعطيت أوامري لمحمد بن خلفان لإرسال ما تبقى إلى تابورة عندما يصل الحمالون.

---

(١) هكذا وردت في الأصل السواحلي، أي أرسل خبراً.

العودة إلى زنجبار (١٦٦ ـ ١٦٨)

(١٦٦) ذهبتُ وأتيت تابورة حيث التقيت بالسيد ج[١]، هو ألماني، كان توّاقاً للتعرف عليَّ ومصادقتي وللذهاب سوياً إلى الساحل. تذمّر قائلاً: «هنا في تابورة أخذ بعض العاج الخاص بي، أخذه محمد بن قاسم. وهذا ليس كل ما في الأمر. ففي إحدى الأيام عند المغرب وبينما كنت جالساً على مقعدي فتحت النار عليّ، رصاصتان، وشظايا. انظر إلى ذلك الجدار». تفقدت ووجدت أن إحدى الرصاصات أخطأته قيد إصبع. لم أعلق. واصل حديثه: «لا أستطيع البقاء هنا وما عندي من عاج يتناقص كل يوم، لا أخاف أثناء النهار وإنما فزعي يزداد وقت الليل».

أثناء ذلك جاء نصراني آخر هو الدكتور ج[٢]، أعتقد أنه روسي. أتى نازلاً من الخرطوم إلى وادي لاي (Wadelai) حيث التقى بأمين باشا ومن هناك توجها إلى أوغندا. عندما وصل أوجيجي سمع أن تيبو تيب في تابورة يرسم للذهاب إلى الساحل. ولهذا أتى إلى

(١) هر جسك Herr Giesecke. وايتلي.

(٢) د. جنكرز Dr. Junkers وايتلي.

تابورة للّقاء. قال: «أنشد حمايتك وأن نسير معاً إلى الساحل. أريد أيضاً حمالين لنقل زوجتي ونقل البضاعة». قلت: «كل شيء جاهز، وقررنا المغادرة».

(١٦٧) وصلت وقضيت الليلة في أتيتيرا. ثم في منتصف الليل أطلق الرصاص على السيد ج. جاء الدكتور ج أولاً لأنهما نصبا خيامهما جنباً إلى جنب. ذهبت لرؤيته فوجدت أن إصابته بالغة. بعثت رسلاً في الليلة ذاتها إلى كيبالا (Kipala) وإلى المنصرين الفرنسيين لإخبارهم بما حدث. وتوجهت بنفسي إلى تابورة في الحال لأصل في الساعة التاسعة بعد منتصف الليل. ذهبت في الحال إلى زيد بن جمعة[١] وقلت له: «لقد اعتديت علي دونما سبب. إنك لم تهاجم النصراني وإنما هاجمتني أنا». رد زيد بن جمعة: «لم يطلق أحد عليه النار سوى محمد بن قاسم. هذه الليلة سمعت صوت طلق ناري وظننتهم عائدين».

في اليوم التالي أرسل زيد بن جمعة رسلاً لاستدعاء جميع العرب ويبعث خبراً بذلك إلى السلطان. جاء أثناء الصباح رجال من سيكي (Sike) ومعهم أحد السكان المحليين هو سونجورا (Sungura) الذي قال إنه لا يعرف أي شيء مما حدث وأن هذه من أعمال محمد بن قاسم. جاء العرب في مجموعة ومعهم محمد بن قاسم.

(١) ربما كان زيد بن جمعة بن سالم الحارثي، الذي ولد أوائل القرن ١٣ الهجري في ولاية ابرا، ورحل إلى شرق أفريقيا، كان شاعراً وعالماً فيهاً وعمل وراقاً. ينظر سالم العياضي بحث غير منشور.

وجاء رجل إنجليزي تصادف أن كان موجوداً في أرامبو. كانت القضية خطيرة.

أنكر العرب أي علم لهم بالأمر. تقدّم سليمان بن زاهر وتكلم ومحمد يسمع: «لم يطلق النار أحد سوى محمد بن قاسم» تقدم محمد بخجل وقال: «الحقيقة أنني سرقت العاج ولكنني لم أطلق النار على النصراني. لماذا أقتل رجلاً على وشك السفر مع حمد بن محمد؟ لا أفعل شيئاً كهذا!». قال سليمان: «أنت وحدك المذنب وأنت يا حمد قل فيه حكمك وسوف نضعه في القيود، وندفعه إليك لتسلمه إلى الساحل». قلت: «أنتم يا أهل تابورة ألقوا القبض عليه».

ثم إن الرجل الإنجليزي الذي أتى من أرامبو وأنا أجتمع رأينا على الذهاب للاطمئنان على السيد ج. ذهبنا إلى أتورو ووجدنا الدكتور ج الذي أخبرنا أن المنصّرين قد أخذوا السيد ج في حالة سيئة. طلبني وقال لي: «أنا متكلف، والله العليم بحالي، وقد غرني العاج. وإذا تركتني على هذه الحالة فسيضيع تعبي. تفضّل بحمله وتسليمه إلى أصدقائي بالساحل. فقط قل أجرتك». قلت له: «لا أريد شيئاً منك ولكن أخبر هؤلاء النصارى، الفرنسي والإنجليزي والدكتور ج أن يحصوها وسآخذها». قال: «اترك معي ثمانية من الرجال فقط لرعايتي».

غادرنا ومعنا النصارى للعودة إلى أوتورو لحساب قرون العاج. وعندما أنهينا الحصر عاد المنصّران إلى إرساليتهما أما الإنجليزي فقد طلب رجالاً لأخذه إلى تابورة.

(١٦٨) وكان من أمرنا أننا توجهنا إلى الساحل في اليوم الثاني ووصلناه من جهة باجامويو. وجدت خطأً من السيد برغش يعرِّفني أنه إذا وصلت بجامويو فعليّ التوجّه حالاً إلى زنجبار. قضيت المساء هناك وفي الصباح تركتهم لأصل زنجبار حوالي الساعة التاسعة. ذهبت إلى السيد برغش وسألني عن الأخبار. قصصت عليه ما جرى من أوله إلى آخره. بعدها سألني: «وما عزمك الآن؟ غادر ثانية ولا تبقَ قريباً من زنجبار». قلت: «لا بد لي من راحة. والأمطار تهطل، والطعام غير متوفر على الطريق الآن، أحتاج بعض الوقت للراحة. ولكنني تحت أمرك إذا أردتني أن أذهب». قال: «منك السماح يا حمد ولكن الواقع أنني لا أرغب في البر أبداً والأوروبيون هنا يريدون السرقة. هل يا ترى سيكون البر؟ لقد استراح من مات ولم يسمع بأمر كهذا. وأنت يا حمد ما زلت غريباً على هذه الأمور وستأتيك الأيام بالأخبار».

عندما سمعت كلام السيد عرفت ما تبقّى من الأمر. بقيت في زنجبار مدة شهرين ثم جاء الخبر أن السيد د الذي كان في شلالات ستانلي تعارك مع العرب وهرب.

عقد مع البلجيك والعودة ثانية إلى شلالات ستانلي عبر الساحل الغربي (١٦٩ ـ ١٧٢)

(١٦٩) خلال الشهر الثالث وصل ستانلي ومعه عشرة من النصارى، والتقينا لدى القنصل السيد هـ، وقال لي: «كنا نريد الحملة أن تأتي مباشرة من أوروبا من جهة الساحل الغربي، ولكن عندما سمعت أنك في زنجبار قررنا المجيء للقائك لأمرين اثنين: نريدك أن تكون والياً على منطقة البلجيك وعلى رجالك في هذه المنطقة رفع العلم البلجيكي. ونريدك أن تعطينا رجالاً للقبض على أمين باشا». أجبتهم أنه عليّ مشاورة السيد برغش فنحن وأراضينا في قبضته. ردوا عليّ أن السيطرة الكاملة تقع في يدي أنا وكل مانيما في قبضتي والواقع أنني كنت سلطاناً عليها. كتبوا اتفاقاً وقرأه السيد هـ عليّ.

أخذته وعرضته على السيد برغش وأخبرته بكل ما دار. نصحني السيد بالموافقة وأن أسايرهم في كل ما يريدونه. شكوت إليه ضعف الراتب الذي قرروه لي وهو ثلاثون جنيهاً شهرياً. ولكنه أصرَّ عليَّ بالموافقة حتى ولو على أقل من عشرة جنيهات في الشهر وأنه سيكون بمقدوري مزاولة نشاطي في الوقت ذاته.

بقينا ثم تحركنا أنا ومعي مائة من رجالي. أمرت محمد بن سعيد الوردي أن يرسل بضائع إلى مانيما قيمتها ثلاثون ألف دولار. قبيل مغادرة زنجبار ذهبت مع ستانلي لوداع السيد برغش. أعطى ستانلي خاتماً عليه ماسة وكتارة[1] وأعطاني خاتماً عليه ماسة وساعة ذهبية ومعها ألفا روبية.

(١٧٠) أبحرنا مدة اثني عشر يوماً في أربعة وعشرين وضحاً[2]، لنصل معسكر الأدميرال (Admirals Cape) بقينا هنا يوماً واحداً وجاء خلاله أوروبيون: رجال ونساء لرؤيتي، لم أنزل إلى اليابسة. أبحرنا ثانية حوالي الساعة السابعة ظهراً لنصل قبيل المغرب إلى المدينة (Capetown) نمنا في السفينا وفي الصباح دخلنا البندر.

وفي صباح اليوم التالي سرنا إلى بساتين الملكة وعدنا راكبين. وفي الظهر أبحرنا ثانية ودرنا حول اللسان الغربي، لاقينا تعباً شديداً بسبب تأرجح السفينة. لم نجد الأمان إلا المغرب حيث آوينا إلى خور بحري[3]. أبحرنا لثمانية أيام، أي ستة عشر وضحاً قبل أن نصل إلى البانانا (Banana).

(١٧١) أقمنا هناك يومين كاملين. وفي اليوم الثالث ذهبنا إلى دكان الدتش الهولنديين وقوبلت باحترام شديد. عندما غادرت

---

(١) هكذا وردت في الأصل وتستخدم في اللهجة العمانية للدلالة على أداة من أدوات الحرب أقصر من السيف وتكون مستقيمة ليس لها ذلك التقوس الخفيف الذي للسيف.

(٢) الوضح هو مدة زمنية مخصوصة. هو مستخدم في اللهجة العمانية القديمة لحساب أجر العمال. لم يتبينه وايتلي واستخدم اللفظة ذاتها ولم يترجمها أو يعلق عليها.

(٣) يختلف النص الإنجليزي عن السواحلي هنا، وقد اعتمدنا على النص الأصلي.

أعطوني رسالة[١] لأخ لهم هو ج. ر. (R.G.) في كينتامبو (Kintambo)، ستانلي بول (Stanley Pool).

غادرنا ثانية ووصلنا إلى ماتاري (Matari) (Matadi) وأخذنا طريق العالي لأن الموسم كان موسم أمطار. تقدمنا ببطء شديد. وبعد خمسة عشر يوماً وصلنا إلى كينتامبو (Kintambo)، ستانلي بول، أعطيت ج.ر. رسالته وطلب مني أن أعطيه عاملاً واحداً يمكنه أن يأتي معه إلى شلالات ستانلي. أعطيته واحداً يُسمى نايمو (Naimu).

أبحرنا في قارب حتى بلغنا أكوتي (Ukuti) وبانجارا (Bangara)، وسرنا طوال الطريق الذي بناه النصارى وحيثما ذهبت كان النصارى يبدون حفاوة كبيرة بي. لقد أحسن البلجيكيون صنعاً[٢].

(١٧٢) [أبحرنا] حتى بلغنا نهر أسوكو (Usoko) الذي يدعى في نواحيه الأعلى بماتشور ستانلي (Mature Stanley)[٣]، ودخلنا القرية بالقوارب. وهي القرية ذاتها التي قُتل فيها كثير من رجالي الذين كانوا بإمرة سالم بن محمد. هذا هو النهر الذي نزله ستانلي على قاربه الآلي. أعطوني والرائد بارتلوت (Major Barttelet) قارباً واحداً لأخذنا إلى شلالات ستانلي. وقبل أن نصل هناك كنت قد سألت

---

(١) في العادة تستخدم في الأصل كلمة خط العربية أما هنا فقد استخدم كلمة أخرى غير عربية وهي barua.

(٢) هذه الترجمة إشكالية وهي تختلف عن الترجمة الألمانية غير إنها تقترب من النص السواحلي. ترجمة أخرى ممكنة «أتمنى أن لا تتضاءل قوة البلجيكيين». وايتلي. والترجمة الحرفية للعبارة: «لم تقصّر دولة البلجيك».

(٣) أتورا، ستانلي.

ستانلي أن يعطي باروداً للرجال الخمسمائة الذين أعددتهم له. قال: «لا أستطيع أن أعطيك البارود الذي لديّ، ولكن اذهب واشتر ذلك من شلالات ستانلي». كنت قد أعطيت رايات بلجيكية لنصبها في جميع المناطق الخاضعة لسيطرتي. في أسوكو قام رجالي بوضع الرايات أنّى توجهوا. وفي شلالات ستانلي أعدت قاعدة الراية ووضع عليها البنديرة البلجيكي. غادر الرائد. وودع بعضنا البعض.

موت الرائد باتلوت وجامسون وادعاءات ستانلي (١٧٣ ـ ١٧٦)

(١٧٣) جمعت بعض الرجال وأرسلتهم للرائد ذلك أن ستانلي وبعد الوداع اتجه إلى الأعالي في أوسوكو. وعندما كان مغادراً كانت نيته أن يترك بعضاً من رجاله والنصارى الذين كانوا تحت إمرة الرائد ليلحقوا به. لذلك فقد غادر الرائد، وأنا جمعت أكثر من خمسمائة وأعطيتهم لعلي بن محمد الهنائي ليأخذهم.

عندما أتينا أنا والرائد كنا نأمل أن نجد باروداً لدى العرب القاطنين، ولكننا لم نجد شيئاً البتة. وكذلك لا شيء لدى سكان نيانجوي وكاسونجو. كان البارود شحيحاً. لم يكن لدي سوى القليل منه وقد أعطيت بعضه لعلي بن محمد الذي ذهب وعبر رومامي ثم اتجه عالياً إلى أوسوكو. كان النهر هادئاً وممتعاً.

وبين قرى السكان كانت هناك القرى الكبيرة جداً. ذهبوا بعيداً في أعلى النهر لمدة أربعة أيام على قوارب وفي اليوم الخامس وصلوا القرية التي قُتل فيها رجالي الذين تحت إمرة سالم بن محمد. قاتلوهم حتى انتهى ما عندهم من الرصاص وعادوا.

(١٧٤) أقمت هناك (في شلالات ستانلي) يومين وفي الثالث توجهت إلى كاسونجو ونيتي أن أعود سريعاً. وفي اليوم ذاته غادرت وظهر بعض النصارى يبحثون عن عمالهم. أتى السيد جامسون (Jameson) وسأل عني محمد بن سعيد، بوانا سيجي فرد قائلاً إنني ذهبت إلى نيانجوي وكاسونجو. طلب زوارق للحاق بي وعليه وصل إلى كاسونجو حيث قال: «شعرنا بالتأخير فأتيت لتسريع الأمور». شرحت له ما حدث في أوسوكو، ومباشرة بدأت في تجميع عدد من الحمالين أكبر مما هو مطلوب. جمعت أيضاً طوافات وتوجهنا إلى كاسونجو عن طريق النهر. في اليوم المضروب للمغادرة برز محمد بن خلفان، روماليزا آتياً للقائي. بقيت يوماً واحداً وشرحت له كيف أنني الآن تحت السيطرة البلجيكية «خذوا الأوامر مني. لقد تفاهمت معهم فيما يخص المنطقة التي هي تحت سيطرتي ورفعت بنديرتهم. أنت أيضاً وكل من يقيم في منطقتي عليه اتباع تعليماتي. وكذلك متوا. انصبوا البنديرية البلجيكية». وافق على عمل ذلك ثم طلب سبعة وثلاثين ألف دولار بدلا ثمانية وثلاثين، قيمة البضاعة التي بعثتها عن طريق النهر مسبقاً لجولتي حول اللسان، البضاعة التي أعطيتها ماكانجيرا (Maknjira) أثناء مروره بتابورة. رد: «عن الثلاثين ألف دولار، قيمة البضاعة، أخذت النصف!». «هل لديك عاج؟» سألته. «كله في أفينزي» كان رده. «وهل أرسل الرجال الذين كانوا في رويمبا شيئاً من العاج؟». قال: «لقد أحضروا كمية منه». صدّقته، ونصحته بطاعة النصارى إلى أقصى ما يريدون. ذلك لأن قوتنا هي في يد

سلطاننا. وكل قوتي أنا وشعبي في يده. وهو يتبع أوامر النصارى أكثر منا. ورضي بذلك. غادرته وذهب كل منا في طريقه. جاء من أجيجي لرؤيتي خاصة ولم نبق معاً سوى يوم واحد.

واصلنا المسير السيد جانسون وأنا حتى وصلنا شلالات ستانلي. ومباشرة توجهنا إلى معسكرهم في أرووومي (Aruwimi) في أسوكو. سلمتهم الرجال مع وصولي وقاموا بالتحميل مباشرة. بعد فترة جاء مركب بلجيكي وفيه بعض النصارى الذين بقوا هناك منتظرين تحديد مكان ليقوموا بالبناء، واحد منهم كان كاتبي. أردت وسيلة لكتابة لغة النصارى لتوجيه الخطوط والأوامر. في اليوم الذي غادروا فيه ركبنا، الرائد والسيد جانسون وأنا وآخرون، قارباً ذاهبين إلى شلالات ستانلي. بعد ذلك بعدة أيام، برز السيد ج. ر. الهولندي في قاربه ومعه الرجل الذي تركت في ستانلي بول. اشترى بضاعة وعاجاً. وعندما انتهت اشترى غيرها نقداً. قلت له أن يرسل حوالة إلى تاريا في زنجبار. فقال إنه لم يسمع بهذا الاسم، اقترحت عليه أن يسأل عنه في أوروبا وسيعرفونه. من جانبي فسأبعث إلى تاريا حوالة مرسلة إليه وأن يعرفني بوصولها. أجابني، وغادر السيد ج.ر.

(١٧٥) بقينا هناك شهراً ثم أتى جامسون حاملاً الأخبار أن الرائد قُتل. القاتل هو أحد رجال السينجا (Senga) الذي فر مباشرة. هب أيضاً بعض الحمالين تاركين وراءهم عشر حمولات. غير أن كل واحد منهم تم القبض عليه في القرى وأُتي بهم. اقترحت أن نقوم أنا والبلجيكيون بطرح السؤال التالي عليهم: «لماذا قام السينجا بقتل

الرائد؟». قيل أن السبب هو أن الرائد حرّمهم من الرقص. قال رأسهم: «هذا الرقص هو المتعة الحقيقية في الأسفار، هل علينا أن نكون كئيبين وكأننا مفجعون. وفي إحدى الليالي حوالي الساعة الثامنة أو التاسعة كانت زوجات السينجا يغنين حيث ظهر الرائد فجأة وفي يده حربة ويريد أن يقتل زوجة السينجا. وعندما رأى السينجا ما حدث لزوجته أطلق عليه النار. هذا هو سبب مقتله».

بقينا هناك أربعة أيام حتى تم القبض على السينجا وزوجاته وأطفاله. أرسلتهم إلى البلجيكيين الذين سألوه لماذا أطلقت على الرائد. ذكر السبب نفسه الذي قاله لجامسون. ضغطوا عليه: «اعترف فيما إذا كان أحد قد وجّهك لذلك، اعترف فأنت ميّت لا محالة». أصرّ أنه لم يوجهه أحد إلى ذلك وأنه ليس هناك سبب آخر غير ما ذكر سابقاً. البلجيكيون استدعوني وجامسون. أعطونا الحكم على سينجا وسلموه لنا ثم إن جامسون أمر بأن يعدم رمياً بالرصاص. أما أسرته، قال جامسون، لا صلة لهم بالموضوع ولا تبعة عليهم. رجلنا سينجا أطلق عليه الرصاص وأعدم.

أرادني جامسون أن أذهب معه في سفرة. قال البلجيكيون: «لا يمكن لحمد بن محمد أن يذهب. جاء إلى هنا في أمور الحكومة، ونحن تحت مسؤوليته، كيف يمكنه الذهاب؟! يقضي عقده أن يوفر لنا الرجال لا أن يذهب في أسفار». أعلن جامسون استعداده أن يدفع خمسين أو ستين ألفاً وإذا كانوا في أوروبا لا يستطيعون دفع ذلك فسوف يدفعه من ماله الخاص. قال البلجيكيون: «إذا كنت تريد حمد بن محمد فالأفضل أن تذهب إلى البانانا وتبعث تلغرافاً

إليهم. وإذا سمحوا له بمصاحبتك اتفق معه على راتب». قرر أن يذهب وأعطيته طوّافات وأناساً يأخذونه ولكنه لم يتمكن من الوصول إلى البانانا فقد أصابته حمى ومات.

عاد رجالي بالأخبار بعد أن وصلوا إلى قرية الأوروبيين (البلجيكيين) حيث مات جامسون. بعد فترة وجيزة من عودة رجالي جاء ستانلي ووجد رجاله ورجالي والأحمال. أتى برجل إلى مخيمي وأرسلته إلى سالم بن محمد لرؤيته. قال له: «سأغادر في طريق لم تتحدد معالمه بعد، رأيت أمين باشا، وتوجهت إليه. والآن سنذهب إلى الساحل. إضافة، سأقول إن حمد بن محمد مسؤولاً عن قتل الرائد». رد عليه سالم بن محمد: «هذا يعود إليك وقل ما بدا لك. ولكن رجالك (الحمالين) هنا هم من الذين حصلت عليهم عن طريق حمد، وقد أرسلني إلى هنا لتوصيلهم إليك». غادر ستانلي وجاء سالم بن محمد وأعطاني القصة كاملة.

(١٧٦) أقمنا في شلالات ستانلي. وفي كل شهر يأتي النصارى على قاربين أو ثلاثة محملين بالبضاعة ويغادرون بأحمال العاج. ويتركون بعضاً منه. شلالات ستانلي كانت عامرة بالنصارى وفيها من البضاعة ما تشتهي. أصبحت فرضة عظيمة. وكل ما تريد تجده. جاءت شركة من المتعاقدين البلجيكيين والفرنسيين لإدارة المدن وجعلوها ما شاء الله. وفي مناسبة أخرى جاء الحاكم البلجيكي الذي كان متحمساً لفرض المكوس على العاج. على كل فراسلة خمسة جنيهات تذهب للحكومة وثلاثون للتاجر. وافقته وقلت له: «بالنسبة لي فسأدفع الخمس أما بقية العرب فلا عليهم

أكثر من ثلاثة». انصاع لذلك ودعوت جميع أقاربي في شلالات ستانلي ولك من جاء بعاج. وافقوا على أي مبلغ أحدده. أخبرت الحاكم أن الأمر قد تم فرحل. أعداد القرون الواردة كانت متأرجحة. كانت علاقتي طيبة بالبلجيكيين الذين أتوا ومن كنت برفقتهم، عاملوني باحترام شديد ونفذوا جميع أوامري. وفيما يخصني فقد وفّيت بجميع الشروط، وكان بيننا اتفاق كامل واتحاد في الهدف.

جاء رجل فرنسي يريد طوّافات وحمالين لأخذه إلى الساحل، إلى زنجبار. أعطيته رجالاً أخذوه إلى كاسونجو فبحيرة تانجانيقا ثم إلى تابورة وأخيراً زنجبار. ولكن شلالات ستانلي وحدها كانت بمثابة الساحل[1]. لقد استغنى عن بضاعة زنجبار وأجيجي وتابورة، في متناول يدك كل ما تريد.

ثم جاء خط من طرف سيف بن حمد وسعيد بن حبيب يستأذناني في الذهاب إلى الساحل، فأجبتهما بالموافقة.

بعد ذلك بقليل جاءت الأخبار من أوروبا بوفاة السيد برغش وتنصيب السيد خليفة. بعثت برسالة إلى سيف بن حمد أخبرهم أن يحملوا الرسالة إلى السيد خليفة، شددت عليهم أن يعطوا الرسالة لسيف حتى إن اقتضى ذلك الذهاب إلى تابورة.

لحقوا به في بحيرة تانجانيقا. في هذه الفترة كنا في غمرة

---

(١) من المناسب مقارنة هذه الصورة الحيوية بما يقدمه كونراد (Conrad) في روايته قلب الظلمة Heart of Darkness الروحاني، الذي كتب بعد سنين قليلة، مشغول بقسوة الطقس والمطر وما فرضته من سقوط في الأخلاق. وايتلي

انشغالنا بالتجارة في شلالات ستانلي، لم يكن لدينا وقت لتقدير العاج. البعض يريد أن يقايضه ببضاعة وآخرون يطلبون جنيهات وغيرهم روبيات.

ثم جاءت الأخبار القوية من أوروبا من ملك البلجيكيين يقولون إن ستانلي أخبره أنني مسؤول عن موت الرائد وأنني بذلك خرقت الاتفاق وأن القصاص للرائد سيحل بي. وقد صودرت أموالي التي عند تاريا توبان. هذه دعوى كبيرة ضدي. وستكشف خطوط زنجبار لي حقيقة الأمر.

العودة إلى زنجبار، تمرّد روماليزا على البلجيكيين وتيبو تيب (١٧٧ ـ ١٨٣)

(١٧٧) وعندما وصلتني الأخبار قررت أن أسافر. فلا فائدة من البقاء، ومن الأفضل لي الذهاب إلى الساحل. حاول أقاربي في شلالات ستانلي ثنيي عن ذلك قائلين: «لماذا تنزل الساحل؟ ابق هنا!». رددت: «أنتم خفيفو العقول، لا شيء يبقيني هنا، لقد فقدتم عقولكم». غادرت وذهبت إلى نيانجاوي وأخبرت أتباعي أنني قررت النزول إلى الساحل. لم أخبرهم بالقصة إذ هم أناس من ماريما لا عقول لهم. وصلت إلى كاسونجو حيث وجدت خطوطاً كثيرة وبها كلمات قاسية. أقاربي في الساحل ترجوني أن لا أدخل قائلين: «في المال ولا في الحال». تأكدت أن هناك وشايات كثيرة واستدعيت أقاربي في كاسونجو وقلت لهم: «سأذهب إلى الساحل جاءتني رسائل وأوامر». ضغطوا عليّ للبقاء قائلين: «اتركهم يأخذون البضاعة التي في الساحل، ما عندك هنا فيه الكفاية». قلت: «هنا في مانيما هل لدينا القوة الكفيلة بإيقاف النصارى؟ ما نوع السلاح الذي لديكم؟ هل أهالي مانيما يجيدون فنون القتال؟ لدينا بعض القوة ولكن إعدادها يحتاج إلى وقت وليس لدينا وقرى

الأعداء تحيط بنا. عندما كان العرب أقوياء وعادوا النصارى تقبّلت تفوقهم أما الآن فالكفة في جانبهم وما لديهم من قوة ومصادر غير محدود. دعوا عنكم هذا الرغاء». حتى محمد بن سعيد، بوانا سيجي حاول ثنيي عن الذهاب فالتفت إليه: «حتى أنت تقول لي هذا، كنت أظن لديك ذرة من العقل، وتأتي لتقول لي هذا الكلام». وفجأة جاءتنا الأخبار أن محمد بن خلفان، [روماليزا] ينوي شن غارة على الكابتن ج. النصراني[1]. أمرت محمد بن سعيد أن يسير إلى محمد بن خلفان ويثنيه عن إتيان هذا الأمر إذا كان في طرف من أطراف منطقتي. اتجه محمد بن سعيد إلى أوجيجي وواصلت أنا مشاغلي. وما إن أنهيت هذا الأمر حتى توجهت إلى الساحل.

نسيت قص ما حدث أثناء مغادرتي لستانلي فولز ووداعي للنصارى. أعربوا عن أسفهم لمغادرتي. استدعيت أفراد الشركة وعلى رأسهم السيد ت. وأخبرتهم أنني سأسافر لمدة وفي مكاني جعلت راشد بن محمد بن سعيد والياً. وسيرعى شؤوني الخاصة حمد بن محمد بن سنان وعلي بن محمد بن علي. هذا ما كان من خبر شلالات ستانلي.

(١٧٨) بعد أن عبرت كاسونجو كنت قد قطعت نصف الطريق حينما وجدت مصبح بن نجم والي بحيرة تانجانيقا. قصّ عليّ أخبار تلك الديار وأن محمد بن خلفان أعلن حرباً على النصراني

(١) الكابتن جاكوز Capt. Jacques وايتلي.

الكابتن ج. قلت له لقد تدبرت الأمر وأرسلت رسلاً لإيقافه وأن محمد بن سعيد ذهب خصيصاً لهذه المهمة. قال مصبح: «لم أرَ رجلاً ضعيف التدبير مثله. إنه لا يستمع إلى أحد». لقد سمعت هذا الرد من مصبح بن نجم. سرت حتى وصلت متوا، وجاء (محمد) لملاقاتي. لمته كثيراً. قال: «ما قلتَه حقيقة ولكنهم غير قادرين على الحرب فقد ضربت عاصفة سفينتهم المحملة بالبارود وأجبرتهم على العودة».

رفعت البنديرة البلجيكية في متوا فقد أكدوا لي أثناء مغادرة شلالات ستانلي على رفع البنديرة في كل المناطق التي تتبعنا. ثم بعد ذلك ذهبنا إلى أوجيجي حيث تركت العاج.

سافرت ووصلت أوساجيزي ورأيت مسعود بن بخيت يحمل خطوطاً كثيرة لي من عرب تابورة تنصحني جميعها بعدم الذهاب لى الساحل. مشبطات أخرى، بالإضافة، رسالة أخرى من القاضي كراكنيل (Cracknel) أنه إذا لم أنجح في تخليص أملاكي التي في منزل تاريا توبان في مدة أقصاها ستة أشهر فإنها ستؤول إلى سميث مكانزي (Smith Machenzie) حثثت المسير حتى وصلت أرامبو حيث مات مباندا شارو (Mpenda Sharo) وتولى ابن ميرامبو. لقيت منهم احتفاء كبيراً كالذي يسبغونه على آبائهم.

مررت بمنصِّر إنجليزي الذي أعد لي مأدبة، وكان في جواره الألماني السيد ب. سألني المنصِّر: «وهل ستمر بالألماني؟» قلت: «لا»، «فقد سمعت من مسعود بن بخيت أنه متعجرف». «حقيقةً، ولكن مرّ به». قال المنصِّر، فعلت واستقبلني بحفاوة، تبادلنا

الأخبار، وقدّم لي القهوة والشاي. خرجت وضربت خيامي بجنب بئر قريب منه. أرسل لي من الهدايا كذا وكذا[١] بينها سبع بقرات، فأدخل ذلك السرور إلى نفسي. أخبرني أنه لم يذهب قطُّ إلى الساحل وغاية ما بلغه كان مبوابوا (Mpwapwa) حيث وصله أمر من الحكومة ليتوجه إلى أرامبو. نمت الليل وفي الصباح قلت وداعاً وسافرت.

(١٧٩) وعند وصولي إلى تابورة وجدت أمين باشا قد غادر تاركاً لي رسالةً يتضمن محتواها تعريفاً يقول: «رجالك لم يقصّروا معي أبداً. جئنا ومعنا ستانلي ووصلنا حتى الساحل. أظهر رجالك احتراماً كبيراً في تعاملهم معي، وقد رجعوا إلى مانيما، ادعاءات ستانلي كاذبة».

في تابورة حيث أقمت جاء العرب جميعاً وقالوا إنه قد وصلتهم رسائل من محمد بن خلفان ومحمد بن سعيد. حاولوا ثنيي عن الذهاب إلى الساحل قائلين: «لا يقدر النصارى على بلوغك». قلت لهم: «هل جننتم، أتعتقدون أنه بإمكانكم منعي فيما إذا أرادني النصارى. كيف يمكنكم التفكير في ذلك وأنتم ترون أمين باشا يقتل من الرجال كذا وكذا وأنتم لا تحركون ساكناً. هل فارقتكم عقولكم أم هذه دسيسةً أخرى. غرّوا غيري، فعقلي معي. اذهبوا في سبيلكم فأنا مسافر».

(١) وردت هذه التركيبة في الأصل وأحببت المحافظة عليها.

في تلك الأثناء بالضبط، جاء من أرامبو السيد ب[1]، إلى منزل الوالي سيف بن سعد. شعر الجميع في تابورة برهبة منه ولم يرد أحد رؤيته حتى الوالي لم يذهب إلى الحضرة إلا بحذر شديد. أما أنا فإنه سيشعر بالضيق إذا لم يرني لساعة واحدة. أقام حوالي عشرة أيام ثم ذهب إلى أجوي (Ujui) حيث ودّع كل منّا الآخر واتفقنا على اللقاء في تورا (Tora) عند عودتنا هو من أجوي وأنا من تابورة وسنذهب إلى الساحل سوياً. في اليوم المضروب لرحيلي خرجت لرحلة قصيرة مدتها يوم واحد فأسقطني المرض طريحاً مدة ستة أشهر. لم يتوقع أحد شفائي. أما المنصّرون الفرنسيون فلم يقصّروا من جانبهم فحقنوني بالإبر وأعطوني الدواء، وكذلك النصارى في أرامبو لم ينقطعوا عن عيادتي.

وتدريجياً شُفيت. وفي الشهر الرابع شعرت بتحسن شديد. وقررت المغادرة بعد عيد الفطر. رحلت وجدتني غير قادر. كنت محمولاً على محفّة مدة يومين في ألم شديد. حملت على حمار حتى وصلت مخيماً ولم أقدر على المغادرة. وأخيراً وصلت إلى ميوابوا حيث وجدت المنصّرين الذين أخبروني: «سمعنا من السيد ب أنك كنت تنوي أن تقوم بهذه الرحلة معه وقد تواعدتما عند الوداع على اللقاء في تورا. وعلى طول الطريق كان يتباطأ انتظاراً لك». شرحت لهم: «هذا ما حدث، لقد سقطت مريضاً لمدة

---

(١) فريهر فان بولو Freherr Von Bulow. وايتلي.

خمسة أشهر»[1]. قال لي أيضاً: «جاء أخ جامسون وزوجته - جامسون الذي مات على نهر الكونجو - ويريدون سؤالك عن شيء. سمعوا من ستانلي أن جامسون اشترى في مانيما عبداً مقابل ملابس، وأنه سلمه إلى الأفارقة الذين ذبحوه وأكلوا لحمه وهو [جامسون] يراقبهم وفي حضرتك». قلت لهم: «هذا افتراء، فلم أكن هناك ولم أسمع بهذه الحكاية قبل اليوم، ولا يفعل جامسون أمراً كهذا وأسمح به. ولكنني لم أرَ نصرانياً ولا أي إنسان آخر يكذب بهذا القدر. لا يعرف الإنسان ماذا يقول عندما يسمع مثل هذا الكذب!».

إحساني الزائد إليه لم يكفه. وقد وعد بأن يدفع إليّ ما تبقى عليه. كنت أرى إشارات الكذب في كلامه عندما قال: «حين أصل إلى العالي[2] وأجني ثروة عظيمة وأنال مكانة كبيرة لا أعرف ماذا سأعطيك». وفي النهاية كان كل ما آتى به إليّ عندما التقينا هو تصويرة[3] له وكليب أعطيته لجونسون. أعرف أنّه كذّاب. وبطريقته هذه فإنه لم يخدعني فقط وإنما خدع المرحوم جونسون».

(١٨٠) عندما وصلت إلى أوسجارا وجدت أخباراً من صاحب السعادة الحاكم تقضي أنه بوصولي إلى باجامويو فعلي أن لا أذهب إلى زنجبار قبل أن أراه. وصلت بجامويو وقابلت السيد ستش[4]،

(١) قال قبل ذلك أنه سقط مريضاً مدة ستة أشهر.
(٢) تستخدم في الأصل للإشارة إلى أوروبا.
(٣) هكذا في الأصل واستخدمناها بالعربية فهي تحيل إلى الصورة الفوتوغرافية والرسم.
(٤) هر ستشمت Herr Schmidt وايتلي.

الذي كان كبير الكتبة، وقد عاملني باحترام شديد. ولمدة عشرة أيام أثناء وصولي إلى باجامويو كان الطلب بذهابي إلى زنجبار يرد كل يوم. حتى ظهر الحاكم وأخذني، جاء بنفسه. قضى المساء في باجامويو وسافرنا من الغد ظهراً ووصلنا بندر دار السلام. وجدت من الحاكم احتراماً كبيراً.

بقيت هناك ستة أيام، أو سبعة أيام ثم سافرت إلى أنجوجا. لم أجد أي مطالبة. لا مساءلة ولا دعوى ولا أي شيء، ولم يسألني أحد سوى بعض النصارى الذين سألوا عما كان من أمر جونسون نتيجة افتراءات ستانلي. لم تعد هناك دعوى بيني وبين السيد نيكول غير أنه يريد تأكيد الاتفاق بيننا، وكان ذلك له.

بقيت في أنجوجا ووصل السيد ب، وهو بلجيكي يريد استئجار رجال مني. أرسله المسؤول البلجيكي عن سكة الحديد السيد ف، وهو الممثل البلجيكي في أنجوجا آنذاك. كتبنا اتفاقاً يقضي بأن أقوم بتوفير ثمانمائة رجل من رومامي ـ وانكامبا (Wanakamba) كل ثلاثة أشهر حتى ينتهي ما عندهم من رجال. وقيمة الرأس الواحد سبعون دولاراً. تكاتبنا برجال قيمتهم ثلاثون ألف دولار.

أرسلت طارشاً[1] إلى نجونجو روتيتا ليرسل إلى سيف بن حمد بن محمد أن يوفِّر لي ثمانمائة رجل كل ثلاثة أشهر، وإذا كان لديه أكثر فليبعث بهم.

بعد ذلك الطارش جاء عرب تابورة فاشتريت بضاعة قيمتها

(١) استخدم هذه الكلمة في الأصل وهي من اللهجة العمانية بمعنى الرسول.

خمسون ألف دولار من غير أن أكلفهم بالقيمة وقصدي تشغيلهم. سافروا، بعض البضاعة والمال وصل تانجانيقا لتسقط في قبضة محمد بن خلفان ومحمد بن سعيد، بوانا سيجي. أما عبد الله بن سنان فقد أخذ ما تبقى ولكنه عندما وصل ساجارا قصد سيف بن سليمان الريامي وجاءهم الوهيهي وحربهم. ضاعت بضاعتي وقيمتها ثلاثون ألف تزيد و تنقص.

(١٨١) وبعد مدة قصيرة أتت الأخبار أن محمد بن خلفان أنزل العلم في متوا البلجيكية وقتل نصرانياً بلجيكياً. وكان قصده السير إلى تابورة بنفسه للأمر ذاته. فسلح بالبنادق عدداً من الرجال.

كان يعرف أن نياسا هي أمي وبدأ بمضايقتها بسبب وبدون سبب على اعتبار أنها كانت على رأي واحد مع النصارى، وكان العاج يأتيها من مانيما. وحدث أن أرسل رجاله للتجارة معها مرةً، وفي العودة سلبوا ما عندها من عاج مما يبلغ خمسة وثلاثين قطعة. بعد ذلك بعث خبراً إلى مانيما ونيانجوي، وهم جماعتنا في ساحل مريما، أتباع موريني موهيرا بضرب النصارى وأنه وإياهم على كلمة واحدة، أما أهل كاسونجو وتيبو تيب فهم رجال النصارى. وعندما وجد أهالي مريما ذلك مناسباً لهواهم قتلوا هـ كبير الشركة البلجيكية وصديق مقرب عندي.

وحينما قُتل هـ كان ابني سيف بن حمد في شلالات ستانلي. أتاه السيد ت بالأخبار، وقال: «ما رأيك؟». رد سيف: «رأيي ورأيك هما كالرأي الواحد». في هذا الوقت كنت قد تركت جميع مشاغلي وقوتي وكل سلطتي في نجونجو روتيتا. أساء البلجيكيون

بعض الشيء عندما قربوا نجونجو ولم يخبروا لا سيف ولا راشد، وهما اللذات تركتهما واليين مكاني في شلالات ستانلي، وأكدوا لنجونجو أن أمرهم واحد. لو أخبروا سيف بن حمد وراشد بن محمد عندما وجدوا المنطقة تمتلئ قلقاً وخوفاً من تسلط موريني موهارا (Mwinyi Mohara) لكانوا بطانة للنصارى وجعلوا نجونجو روتيتا ظهيراً لهم، ولقاموا بما يجب. ولكن النصارى البلجيكيين حفظوا أمر نجونجو روتيتا قيد الخفاء. وظهر نجونجو هذا ناقص العقل وخان سادته مغتراً بسلطانه الذي وجد أنه بلغ كذا وكذا وقتل عدداً من الزعماء. أرسل سيف عيوناً لاستطلاع تلك الجريمة ووجد أن هذا الرجل يتسبب في إلحاق الضرر بنفسه. أحس [سيف] بجور الرجل ولكنه لحداثة سنه وعقله الصغير لم يقم بالتحقيق في الأمر ولم يبعث حتى إليَّ طالباً المشورة. وهو يعرف حقيقة أمري ورأيي.

عقد أمره على توجيه ضربة لعبده نجونجو روتيتا. لم يكن يعرف بأمر اتفاقع مع النصارى، وأوشك الأمر أن يضيع. لو كان يعرف بأمر الاتفاق بينه وبين البلجيكيين لما توجه إليه أبداً. الحق أنه كان صغيراً ولكنه كان عاقلاً ومطيعاً لوالده. وصلوا إلى الجانب الآخر لنهر رومامي ومقصدهم محاربة نجونجو. لم يقصّر سيف فقتل منهم كذا وكذا ودحرهم. وفي الصباح بينما كان يتتبعهم برز النصارى. وكان ما كان. فرّ سيف ومن معه وسقط بعضهم في رومامي.

في كاسونجو، وهي قرية سيف، كان هناك نصراني أو اثنان.

وصل خر مقتل سيف بن جمعة، وهو أحد أقاربنا، وكذلك [سيقتل] ابني سيف[١]، إلى الوامنيما (Wamanyema)، الذين كانوا على جانب كبير من الغدر، نهضوا من طرفهم وقتلوا النصراني، وعندما وصل سيف جاءته الأخبار بمقتل النصراني فلم يدرِ ما يفعل.

وفي الحقيقة فإن البلجيك معذورون لمقتل رجالهم في متوا دونما حجة. محمد بن خلفان كان قد أرسل أمراً: «اقتلوهم». وفرس هـ أتى بها روماليزا نفسه[٢].

(١٨٢) وأصل هذه الفتنة وسبب ذلك الخراب كله هو رماليزا. لو كنت حاضراً بنفسي لما خرجت الأمور عن السيطرة. ذلك أنه عندما كان العرب أصحاب صولة ونافسوا النصارى في البرّ كنت بجانبهم وتكفلت باستقرارهم. خاصمني كل العرب ولم أجد البِّر منهم أبداً. ولكن رب العزة منحني حظاً وافراً. الأفارقة والعرب جميعاً كانوا يرهبون جانبي. واختلف الأمر مع النصارى.

وقد خسرت من مالي عند روماليزا بضاعة تبلغ قيمتها بين السبعين إلى الثمانين ألف دولار سلبها في سفرة ماكنجيرة (Mmakanjiro) واذكر ـ إن شئت ـ البضاعة التي أرسلها إلي سيف بن حمد بن محمد ليبدأ عملاً كما قضى بذلك الاتفاق بين السيد ب والسيف ف. ولا تقل شيئاً عن العاج الذي بعثه سيف بن

(١) الغريب هنا أنه يذكر وفاة ابنه وكأنها أمر عرضي غير هام، فهو لا يوضحها بالشكل الكافي.
(٢) هكذا في الأصل. وليس في هذه السيرة كلها ما يدل على استخدامهم الخيل.

حمد من مانيما ويبلغ ألف فراسلة والتي حُملت إلى بحيرة تانجنيقا لتحمل إليّ من بعد إلى الساحل. كلها ذهبت. ولا تذكر العاج الذي جاء من أتوا ورويمبا والتي أتى بها بارانجاوا (Barangwa) وعبد الله بن سليمان الريامي. كلها ضاعت في بحيرة تانجانيقا. وغيرها ثلاثة آلاف فراسلة ضاعت في الحرب في كاسونجو. دون أن تسأل عن الديون التي سددتها عنه، ألف وخمسمائة فراسلة وأراض وبضاعة هناك. وسبب كل ذلك هو ضعف حيلته وانحباسه عن مقابلتي عنه.

وكل هذه الفتنة ابتدأها هو. أما البلجيك، فحاشا لله تعالى، لم يفعلوا شيئاً. وكلما حذرتهم نقضوا ما أقول. ولو كان موقفي قد تُقُبِّل عند البلجيك كما سيتقبل عند أي حكومة أخرى فإنه كان سيخضع لهم. ولكن محمد بن خلفان روماليزا هو المسؤول عن كل هذه الفوضى. ومن حظه أن أمره لم ينكشف. وفي حرب تابورة خاصم دولتين: البلجيك والجرمن. ذهب إلى أوهيهي وناصر أهلها. لم تصبه سوى رصاصة في إصبعه. ومن كل ذلك لم يصبه ضرر. ولزمني في ساحل مريما أن أدفع من مالي. لا أستطيع قول شيء فهكذا أرادت الدولة. وما الفائدة من قول شيء فالإنسان إذا كان محظوظاً تفوق في كل شيء يعمله.

(١٨٣) كتبت كلّ شيء، لم أزد ولم أنقص. كتبت مختصراً، وبعض الحوادث اللاحقة ذكرتها متقدمة فقد مرت سنون كثيرة على تلك الأحداث. ولكن كل شيء مكتوب هنا لا عليه اختلاف. وكل ما ذكرته صحيح لا يتطرق إليه الشك.

أشهر الحوادث وأعظم الرجال
حميد بن محمد المرجبي
فاتح الكونغو

لم يتعود قرّاء هذا الزمان الاطلاع على أخبار الهمم العالية والنفوس الكبيرة وظهور نوابغ القواد ورجال الدهاء إلا بين أهل الغرب. ويعجبهم على الخصوص إذا قرأوا عن قائد أو وزير أو ملك نبغ بين العامة وتسنم عرش السيادة بجده وسعيه. ولكن بين أهل الشرق اليوم نوابغ لا تقلُّ نفوسهم كبراً ولا هممهم سموّاً عن أولئك فقد ينبغون في أواسط آسيا وأفريقيا ويأتون بمعجزات السياسة والدهاء والقيادة ولا نعرف أخبارهم. وإليك ترجمة رجل منهم ولد في الفقر والضنك وارتقى بهمته وسعيه حتى قاد الألوف وفتح البلاد - نعني به حميد بن محمد بن جمعة المرجبي الملقب بتيبو تيب فاتح الكونغو بأواسط أفريقيا وقد بعث إلينا برسمه وترجمة حاله حضرة الشيخ ناصر بن سليمان بن ناصر اللمكي(١)

(١) اللمكي، ناصر بن سليمان، حميد بن محمد المرجبي فاتح الكونغو (مجلة الهلال،=

ساكن زنجبار فأثبتناها مع الثناء على غَيرته في نشر مآثر الشرقيين، قال:

تمهيد

كانت الأقطار الزنجبارية ملكاً للبرتغال كما لا يخفى على ذوي الإلمام بالتاريخ فلما أراد العرب تخليص هذه الأقطار من يد الإفرنج بقوة سلطانهم سيف بن سلطان اليعربي جهزوا جيشاً من بلاد عمان مؤلفاً من قبائل شتى من العرب وفيهم القبائل المراجبة. فبرح هذا الجيش مسقط في سفن شراعية فوصل إلى ممبسة سنة ١٦٦٥ مسيحية وهناك جرت بينهم وبين البرتغال وقائع كثيرة قضى الله بعدها بانجلاء البرتغال من تلك الأقطار واستلم العرب زمام الملك. ولما رجع السلطان إلى مسقط أحب بعض أصحابه الإقامة في تلك الأقطار فأقاموا وفيهم عائلات من قبيلة الحواتم والنباهنة واليعاربة والمراجبة واتخذ كل فريق منهم المناخ الموافق له ولا تزال هذه القبائل باقية هناك إلى الآن. ولكن رجالها لا يتكلمون إلا اللغة الزنجبارية وإنما حفظوا اسم القبيلة فقط. فالمراجبة اختاروا قرية بجنوب دار السلام اسمها مبوماجي مناخاً لهم ولا يزالون فيها إلى اليوم.

=يوليو ١٩٠٦)، ص ٥٧١ ـ ٥٨٠. وردت هذه المقالة ضمن باب ثابت بمجلة الهالل بعنوان أشهر الحوادث وأعظم الرجال. ويلاحظ أن اللمكي سمّى تيبوتيب هنا باسم حميد وهو يشتهر به في الأوساط العمانية أيضاً، غير أننا ذكرنا في تقديمنا لهذه السيرة ما جعلنا نرجّح أن اسمه حمد وليس حميداً.

ثم آل أمر تلك الأقطار مع توالي الزمن إلى الانحطاط حتى جاءها سعيد بن سلطان الأزدي جد العائلة المالكة الآن في زنجبار وعمان فأخذت في التقدم وفتحت أبواب التجارة وجعلت عاصمة المملكة جزيرة زنجبار ثم رحل إليها العرب من عمان كما رحل إليها قبائل البراري والإفرنج.

ترجمة حاله

في هذه الجزيرة ولد صاحب الترجمة وهو حميد بن محمد بن جمعة المرجبي في سنة ١٢٤٨ هجرية وقد نشأ في عصر مظلم وبلاد مظلمة. ولم ير بين يديه إلا قوما لباسهم الجهل وطعامهم الفقر خالين من كل فضيلة متردين بكل رذيلة لا يميزون بين الخير والشر. ولما بلغ السنة الخامسة من العمر اجتهد والده بتعليمه القراءة والكتابة وكتاب الله فأخذ منه بالقسط الأوفر وفي أقرب وقت ثم مكث في حالة الفقر عدة سنوات كأنه على النار إذ كان يشعر في نفسه بشيء يستحثه على طلب العلى وهو لا يدري بأية وسيلة يسمو إليها واتفق أن والده سافر إلى داخل البلاد لطلب الرزق وترك ولده في زنجبار فالولد لم يقر له قرار لأنه رأى في نفسه ضيقاً شديداً لم يعلم سبباً ـ ذلك هو دأب عظماء الرجال يحسون بالكبرياء والعظمة وهم في المهد. فإذا أتيحت لأحدهم الوسائط لقضاء مراده وجد لذلك طريقاً يسهل عليه الأمر أو استعمل الحيلة والمال لبلوغ أربه ولكن المترجم له لم يجد لنيل بغيته طريقاً مع مطالبة نفسه بها وظل كذلك حتى تطرق إلى قلبه اليأس فأخذ في طلب ما يسد به رمقه.

ولما بلغ اثنتى عشرة سنة اقترض اثنى عشر ريالاً اشترى بها ملحاً سافر به إلى دار السلام ومنها إلى داخل البلاد للاتجار ولبث شهوراً يتردد في بيع الملح وقد ذاق حلاوة الجد والاجتهاد وكانت أسفاره لا تزيد عن مسير يومين أو ثلاثة أيام ثم طال سفره شيئاً فشيئاً واطمأن إليه التجار بأموالهم فأتجر في الثياب والمأكولات والكوتشوك وغيرها حتى اجتمع عنده شيء يسير من المال. ثم بلغه أن والده وصل إلى مدينة تبورة وتزوّج بابنة السلطان الاليموز (قبيلة من الزنوج لا يختتنون وهم كثيرو العدد) فشمر عن ساعد الجد وعزم على اللحاق به في تلك البلاد فسافر من باجمويو وبعد مسير ثمانين يوماً في البراري والقفار وصل إلى مدينة تبورة فوجدها كبيرة وفيها من العرب نحو خمسمائة نفس وجملة سكانها أربعون ألفا ثم واجه السلطان وهو صهر والده فلقي منه إكراماً وأهدى إليه عاجاً وقربه منه فقوي نفوذه لديه وبقي هناك متاجراً.

ثم حصل الخلاف بين صهر والده وسلطان آخر من سلاطين الزنوج فتحاربا مدة وخرج حميد بن محمد لنجدة صهر والده ببعض الزنوج والمماليك فدخل بلاد العدو ليلاً وأحرقها واستباحها قتلاً وسبياً وجمع الكثير من العاج واستتب أمره في تلك البلاد حتى صارت ملكاً له وأطاع أهلها أمره. ولما عاد إلى والده منصوراً أخذ ما كان معه من العاج وقفل راجعاً إلى زنجبار فحظي بمقابلة سلطانها يومئذ ماجد بن سعيد بن سلطان ثم باع ما معه من العاج ووفى ما عليه من الديون وأخذ في تجهيز ما يحتاج إليه في سفره فلما تم ما أراد تجهيزه عمد إلى السفر.

نشأته السياسية

لقي حميد في هذه النشأة ما تشيب له الولدان لأنه كان يسافر إلى مكان لم تطأه أقدام أسلافه ولكنه لم يتهيب من ذلك بل كان يسافر والسعد حليفه والعناية تساعده والاجتهاد نصيره على المصائب. برح زنجبار ومعه من الثياب والخرز والبارود والرصاص ما قيمته تسعون ألف ريال حتى وصل باجمويو ثم برحها في سنة ١٢٧٩ هجرية وبعد مضي ١٥ يوماً من سفره قطع اللصوص الطريق عليه وأرادوا نهب ما معه فدافعهم لكنهم أخذوا بعض أمواله فلم يرهبه ذلك وقد أصابت رجاله الشمس فمكثوا ٥ أيام يشربون بول الدواب ثم أصابهم طاعون فمات منهم خمسمائة رجل ولم يجد من يحمل الخمسمائة حمل التي كانوا يحملونها فتركها ومضى إلى حال سبيله وسار مجِّداً حتى وصل تبوره وقد أنهكه التعب ومعه نصف أمواله فتاجر به سنتين ثم مضى إلى البلاد التي كان قد أخذها من قبلا فوجد سلطانها استنجد بسلطان آخر فحاربها فأنكسر شر انكسار وضل عن الطريق وتشتت أصحابه من الهزيمة فوصل تبورة مقهوراً مدحوراً ثم برحها إلى أوجيجي فربح أموالاً طائلة وركب في بحيرة تنكنيكه هو وأصحابه فوصل إلى الجانب الثاني منها سنة ١٢٨٤ هجرية فمكث هناك نحو سنة ونصف سنة بين الزنوج وقد خاف أن يسافر إلى الكونغو لقلة معداته فعاد إلى الويجيجي ومنها تبورة سنة ١٢٨٦.

وبعد سنة وصلهم الخبر بوفاة سلطان زنجبار ماجد بن سعيد وتعيين أخيه برغش بن سعيد مكانه فكتب حميد بن محمد لسلطان زنجبار كتاباً يهنئه فيه بالملك ويطلب منه باروداً ثم سافر لمحاربة

السلطان المغتصب للبلاد التي كان قد أخذها فوصل إليه فوجده متحصناً في مدينته فحاصره ستة أشهر ولم يقدر عليه فجمع أصحابه وحفروا قناة حولوا إليها النهر الذي يشرب أهل تلك المدينة منه فأنقطع الماء عن المحصورين فأسلم السلطان نفسه بشرط أن يسلم ماله لحميد بن محمد ويكون خاضعاً لأمره فرضي السلطان وقويت شوكة حميد وهابه الأهالي فرجع والسلطان معه. وقبل وصوله إلى تبورة جاءه أحد أصحابه بكتاب من سلطان زنجبار برغش بن سعيد يخبره أنه أرسل إليه ألفي رطل من البارود فلما وصلته عزم على السفر إلى أوجيجي فأخذ أمواله وأرسل العاج إلى تبورة ليبيعوه ويبتاعوا له بثمنه الثياب فنزل أوجيجي وأقام فيها حتى وصلته البضائع فقطع بحيرة تنكنيكه في أواخر سنة ١٢٨٧ وسار قاطعاً البراري بين همجية الزنوج وأنياب الضواري يتلقى الأهوال مرة بالعطايا وتارة بسيف والنصر حليفه والشهرة تتقدمه فترتعد الملوك خوفاً منه فيصالح المطيعين ويحارب العاصين ولم يشغله هذا عن البيع والشراء من العاج والثياب. ثم اتجه جنوباً إلى الشمال الغربي فوصل إلى نهر الكونغو عند المدينة التي يسمونها (ستانلي فولس) ولبث فيها مدة يلتمس الراحة. ولما عزم على السفر في نهر الكونغو بلغه أن أحد سلاطين الزنوج قطع عليه السبيل ليأخذ أمواله فتركها في تلك المدينة وجهّز جيشاً من رعاياه ومماليكه قدر ٣٠،٠٠٠ نفس وأمرهم بالسير إلى الشرق فالشمال ليأتوا العدوّ من ورائه وجهّز جيشاً آخر وسيّره على شاطئ الكونغو بحذاء قواربه وعددها ٤٠٠ قارب. فاستمر شهرين كان في خلالهما يبيع ويشتري

وبعد هذه المدة التقى به العدو وكان شديداً عزيز الجانب والجيش الذي بعثه المترجم في البراري لم يصل بعد فانكسر حميد شر انكسار وغنم العدو القوارب واستولى على شيء كثير من ماله وبعد ١٤ يوماً من الهزيمة وفد الجيش فعاد به إلى عدوّه وهجم عليه فتحارب الفريقان ثلاثة أشهر انجلت عن قتل السلطان واستيلاء حميد بن محمد على أملاكه. وأقام هناك مدة رتب فيها جيشه على أربعة أقسام. قسم مؤلف من ٢٠،٠٠٠ نفس أنفده في الطريق الذي جاء منه ليصلوا إلى ستانلي فولس ويخبروا أهله وأصحابه بالنصر ويحفظوا الأموال التي هناك ويذهبوا منها إلى الشرق حتى يبلغوا وسط المنيما في مكان عينه لهم. وقسم مثل الأول عدةً وسيّره من المكان الذي هو فيه إلى الجنوب الشرقي ليدعوا الناس لطاعته ثم يتحولون إلى المحل الذي عيّنه للقسم الأول. وقسم مؤلف من ٢٠،٠٠٠ نفس أمرهم بالبقاء في ذلك المكان وخرج بمن معه وهم ٦٠،٠٠٠ نفس لمحاربة قبائل نيام نيام.

ومن ينظر في هذه السياسة يذهل لصدورها من رجل لم يتعلم فنون الحرب ولم يدخل مدرسة حربية وقد اتخذ نقطا عسكرية لحفظ خطوط الرجعة. أما الجيش الذي كان يقوده بنفسه فوصل إلى قبائل نيام نيام وحاربهم وانتصر عليهم وأخذ أموالهم وسبى أولادهم ثم اتجه نحو الشرق فالجنوب فوصل إلى النقطة التي عينها لأصحابه فوجدهم سبقوه ولم يلق في طريقه هذه المرة حرباً فأستتب الأمن وأمنت السبل قليلاً. ولأدركه العرب من أصحابه وانفتحت طرق التجارة إلى باجمويو فكثرت مداخيل زنجبار.

وقد يقول القارئ كيف يمكن لحميد بن محمد أن يجيّش مائة ألف وكيف كان يطعمهم ويكسوهم فنقول أنه لا محل للدهشة لأن الثوب الذي قيمته فرنك في زنجبار كان يباع هناك في ذلك الزمان بألف رطل من الأرز. ثم إن الأهالي كانوا يحبون متابعته ليغنموا عند انكسار العدو. ولما استتب الأمن عاد بأمواله وبعض جواريه وممالكه إلى زنجبار تاركاً ولاية الأمر لأخوته وصحبه. وفي عودته هذه عبر بحيرة تنكنيكه في السفن الشراعية. واتصل به في أوجيجي نعي والده محمد بن جمعة فبكى عليه وحزن لأنه لم يجن شيئاً من ثمار أعمال ابنه ومرَّ على تبورة فوجد أرملة والده وصهره فأقام عندهما زمناً ريثما استراح من عناء السفر ثم واصل السير حتى دخل دار السلام وقبل وصوله إليها لقيه في الطريق أخوه من أمه محمد بن مسعود الوردي وأرسل سلطان زنجبار السيد برغش رجلاً يسلم عليه من قبله أو يهنئه بما ناله من النعمة والشهرة، وكتب إليه كتاباً هذا نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم من برغش بن سعيد

إلى حضرة الشيخ الأفخم المحب المحترم حميد بن محمد بن جمعه المرجبي سلمه الله تعالى وبعد السلام عليك أخبرني المحب أبن مسعود بأنك واصل إلينا قريباً فوجبت علينا التهنئة لك وأرسلنا هذا الكتاب للسلام عليك والسلام»

وصل حميد بن محمد دار السلام ومعه ٧٠،٠٠٠ رطل من العاج وغيره من أنواع التجارة فسافر إلى زنجبار بحراً فوصلها في أوائل سنة ١٢٩٤ هجرية وباع ما كان معه من العاج وغيره فاجتمع عنده ٣٠،٠٠٠ جنيه صافية بلا ديون.

ثم تجهز للسفر ثانية فأشترى بضائع كثيرة خرج بها من زنجبار سنة ١٢٩٦ إلى باجمويو ومنها إلى داخل البلاد يقتحم الأخطار والمفاوز. وبعد عشرة أشهر وصل إلى البلاد التي اتخذها عاصمة له فوجد الأمر على غير ما كان يعهده إذ شاهد التجارة كثيرة والأرزاق واسعة والتجار من الإفرنج والهنود والعرب عديدين. أما أهل البلاد فكانوا على ما تركهم من السذاجة والجهل وكان الأمن متزعزعاً فتكبد مشاق جسيمة في محاربتهم ومضت أيامه في الحروب ولكنها لم تشغله عن التجارة بل كانت هي تجارته الرابحة لأنه يكسب منها أموالاً طائلة غير العاج والعبيد والغنم وكان جميع ما يحصله يرسله إلى زنجبار لوكيله ويطلب منه البضاعة الصالحة للزنوج.

فلما توفر عنده المال والرقيق عاد إلى زنجبار سنة ١٣٠٠ هـ وباع ما جلبه من البضائع فيها واشترى ما أراده ثم برحها سنة ١٣٠٢هـ قاصداً الجهات الداخلية ولسنا نذكر هنا جميع ما أصابه في طريقه من الحرب والجوع والعطش وما لقيه من اللصوص والوحوش وإنما نقول إنه وجد هناك عند وصوله هذه المرة رجلاً بلجيكياً قنصلاً لدولته وكان الخطر محدقاً به لأنه طلب من سيف بن حميد بن محمد أن يأتيه بجميع العاج الموجود هناك ليكتب عليه اسم الدولة البلجيكية فقبض عليه سيف وأرسل إلى سردار الجيش راشد بن محمد فحكم عليه بالضرب خمسين جلدة وحبس سنتين ولولا وصول حميد بن محمد في تلك الأيام لنال البلجيكي جزاء شديداً. وكان البلجيكيون قبل ذلك يهاجمون العرب مراراً فيصدهم هؤلاء ويقتلون منهم كثيرين. وربما سأل القارئ عن الرجال الذين

كانوا ينصرون البلجليك إذ كان جميع الزنوج رعايا العرب فالجواب أن العرب كانت عادة يكرهها الزنوج وهي أنهم كانوا يحملون أولاد الزنوج يبيعونهم في زنجبار. فلما دخل الإفرنج تلك الديار خدعوا الزنوج وزخرفوا لهم القول بأنهم سيحررونهم ويعملون كيت وكيت من الخير وما زالوا بهم حتى استمالوهم واستعانوا بهم على محاربة العرب. ولم تخف على حميد هذه الحيلة فكان دائماً يعرض عن محاربة الإفرنج ويعدهم خيراً وكان يقول: «دخلت هذه البلاد صغيراً فقيراً وملكت هذه الرقاب جميعها ولم يكن لدي مال ولا سلاح فهل أقوى بهم على الإفرنج».

وكان يكلم أولاده دائماً بهذا المعنى ويحذرهم من غدر الزنوج. ولما باع تجارته هناك رجع إلى زنجبار فوصلها سنة ١٣٠٤ هجرية فوجد الانكليز له بالمرصاد وقد أخبره قنصل الانكليز بما تم عليه الاتفاق وأن البلجيك سيدخلون الكونغو ونصحه بعد معارضتهم وانهم لا يريدون سوى التجارة وأنه سيكون كسابق أمره مطلق الحرية وتدفع دولة البلجيك له مقابل تجارتها ٦٥ جنيهاً شهرياً فأبى فقال له قنصل الانكليز إن انكلترا تعهدت بمساعدة البلجيك وأنه إذا أصّر على إبائه فأول شيء تفعله هو منعه من السفر مرة أخرى.

فلم يجد بداً من القبول وعندئذ قيل له إن أي شيء يطلبه من انكلترا يعطى له وتتحقق أمانيه فيه فطلب من القنصل تحميل عبيده من باجمويو إلى زنجبار وكان الانكليز متشددين في بيع الرقيق وتحميله ولكنهم أذنوا له بذلك لحاجة كانت في نفوسهم فحمل حميد سبعمائة عبد من باجمويو إلى زنجبار ثم وصلت الأخبار من

الكونغو أن البلجيك هجموا على العرب مراراً فصدوهم عنهم وأن العرب أخرجوا جميع الإفرنج من تلك البلاد فلم يبق بها بلجيكي ولا ألماني وكلما أراد البلجيك المسير إليهم التقوا بهم على ضفاف نهر الكونغو ورموهم بالرصاص فشق هذا الخبر على الانكليز وطلبوا من حميد ابن محمد أن يعجل بالسفر إلى الكونغو ومعه المعتمدان الانكليزي والبلجيكي فسافروا سنة ١٣٠٥ في باخرة عن طريق رأس الرجاء الصالح فوصلوا إلى مدينة الكاب ومنها إلى بنانا عند مصب نهر الكونغو ثم سارت الباخرة في النهر ٤ ساعات فوقفت بسبب الشلالات فركبوا الفلك وساروا بها شهرين حتى وصلوا إلى ستانلي فولس. ولما أطل العرب على هذه الفلك ورأوا فيها الإفرنج رموهم برصاص البنادق فأشاروا إليهم أنهم ليسوا محاربين فلم يقبلوا وأخيراً رمى حميد بن محمد نفسه في النهر فلما رأوه عرفوا وأمسكوا عن إطلاق البنادق ونزل هو والإفرنج الذين معه وبوّأ لهم مكاناً وبواسطته تم الاتفاق بين العرب والإفرنج.

وفي غضون ذلك أتتهم الأخبار بوفاة برغش بن سعيد سلطان زنجبار واتقاء خليفة بن سعيد سلطاناً مكانه فمكث حميد يتاجر بماله إلى سنة ١٣٠٧ ثم عقد النية على الرجوع إلى زنجبار فسافر وبعد مسيرة عشرة أيام أتاه الخبر بوفاة خليفة بن سعيد وولاية علي ابن سعيد مكانه فواصل السير حتى بلغ تبورة وفيها أصيب بمرض فتأخر هناك وبعد شهرين وصل ولداه سيف وثابت فوجداه مريضاً فكانا قاصدين الكونغو فأمهما بالسفر إليها ومكث هو في تبورة حتى إذا عوفي من مرضه برحها إلى زنجبار فبلغها سنة ١٣٠٩. وبعد أن

صفا الجوُّ للبلجيك هجموا على العرب مراراً فصدوا عنهم وطلبوا منهم أن يسافروا جميعاً إلى زنجبار فأبوا ولما أعيت الحيلة البلجيك خدعوا الزنوج وزخرفوا لهم القول فانفضوا عن العرب وانحازوا إلى البلجيك ثم هجموا على العرب فهزموهم وغنموا أموالهم وقتل سيف بن حميد وهرب ثابت أخوه ومحمد بن سعيد وغيره واستولى البلجيك على أموال حميد بن محمد ويقدِّرونها بمائة ألف جنيه وكان حميد بن محمد يتمثل دائماً بقول الشاعر:

ومن يفعل المعروف مع غير أهله
يلاقي الذي لاقى مجير أم عامر

حيث ذهبت أمواله وقتل ولده جزاء إحسانه إلى البلجيك.

وفي سنة ١٣١١ وصلت أخبار الهزيمة إلى زنجبار ووصل ثابت واخوته وأنفار من العرب إليها أما بقية أولاد محمد بن سعيد فأسرهم البلجيك وبقوا في أسرهم إلى ١٣٢١ حيث أطلقوا سراحهم وسمحوا لهم بالعودة إلى زنجبار فبلغوها في حال يرثى لها وهكذا انتهت دولة العرب في أفريقية الوسطى وتقلص ظل ملكهم منها وكانت نهاية أمرهم أنهم عاشوا في زنجبار فقراء.

لكل أجل كتاب

لما وصل حميد إلى زنجبار سنة ١٣٠٩ حسب ثروته فوجدها نيفاً ومائة ألف جنيه إلا أن وكيله الذي كان في زنجبار تحيل عليه وقدم وأخر في دفاتره فاختلس من تلك الثروة نحو ٣٠،٠٠٠ جنيه و٣٠،٠٠٠ جنيه كانت في يد هندي أعطيت له إليه للتجارة فذهبت

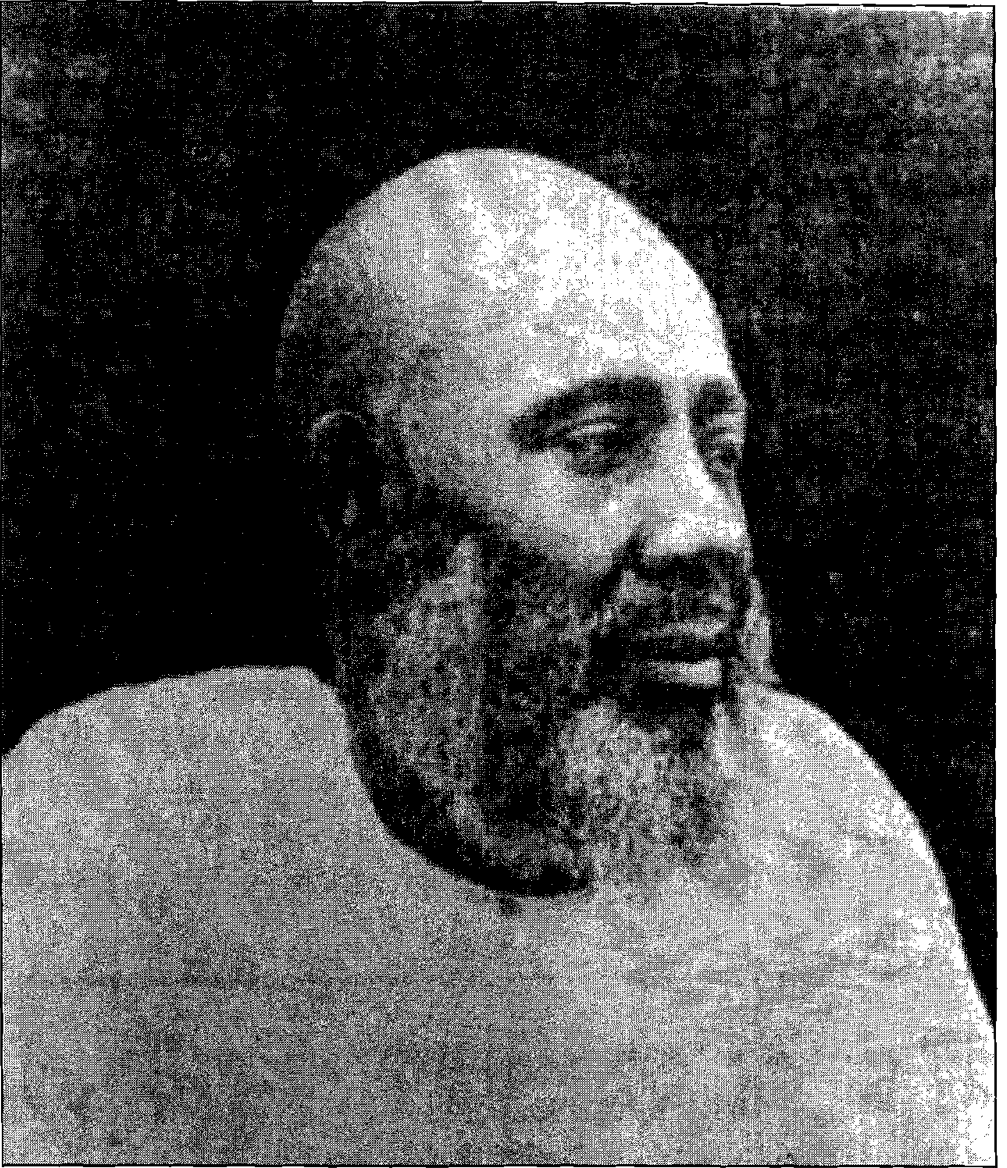
ولم يحصل إلا على ٤٠٠٠ و٧٠٠٠ جنيه أعطاها محمد بن خلفان الذي ادعى الشركة في ملكه وحكمت له محكمة دار السلام بدفع هذا المبلغ، ونحو ١٦،٠٠٠ جنيه دفعت إلى المحامين عنه في دعاويه حينما أراد الدفاع عن نفسه في أمر الشركة وغيرها من الدعاوى، وكان دائماً يقول «ذهب ربع ملكي في أفواه المحامين».

والذي بقي عنده اشترى به بيوتاً وبساتين فعاش من ريعها. وفي سنة ١٣١٠ توفي سلطان زنجبار علي بن سعيد وعين حمد بن ثويني مكانه فنال منه رتبة. وفي سنة ١٣١٤ توفي حمد بن ثويني وهبت ثورة في البلاد فأطلقت الانكليز القنابل على القصر السلطاني ثم عين حمود بن محمد بن سعيد سلطاناً وفي سنة ١٣٢٠ توفي حمود بن محمد فخلفه ابنه علي بن حمود وهو السلطان الحالي أدام الله ملكه. مضى هذا الزمان وحمد بن حميد (هكذا في الأصل ويقصد حميد بن محمد) بين الدعاوى والشكاوى وفي شهر ذي الحجة سنة ١٣٢٢ أصابه مرض الاستسقاء ثم عوفي منه ولكن صحته بقيت ضعيفة فأشتد به الألم حتى كانت الساعة الخامسة من ليلة الأربعاء عاشر ربيع الثاني (١٤ يونيو) قبضه الله إليه. وما شاع الخبر حتى توافدت الجموع إليه منزله وفي مقدمتهم قنصل جنرال أمريكا أوفيس وتتابعت الجموع وسار في جنازته أناس كثيرون. وفي الصباح جاء قنصل جنرال الانكليز وقنصل الالمان وغيرهما من معتمدي الدول والتجار الأجانب وأعيان العرب والهنود والزنوج لتعزية أهله، ونقل البرق خير وفاته إلى العالم المتمدن فأتت جرائده مملوءة بالكلام عن سيرته.



بورتريه لتيبو تيب

المصدر: KONINKLIJK MUSEUM VOOR MIDDEN AFRIKA



تيبو تيب في لحظة تأمل. مقتطف من كتاب «الحركة الجغرافية» (١٨٩٠)، ص١٢٥

المصدر: KONINKLIJK MUSEUM VOOR MIDDEN AFRIKA



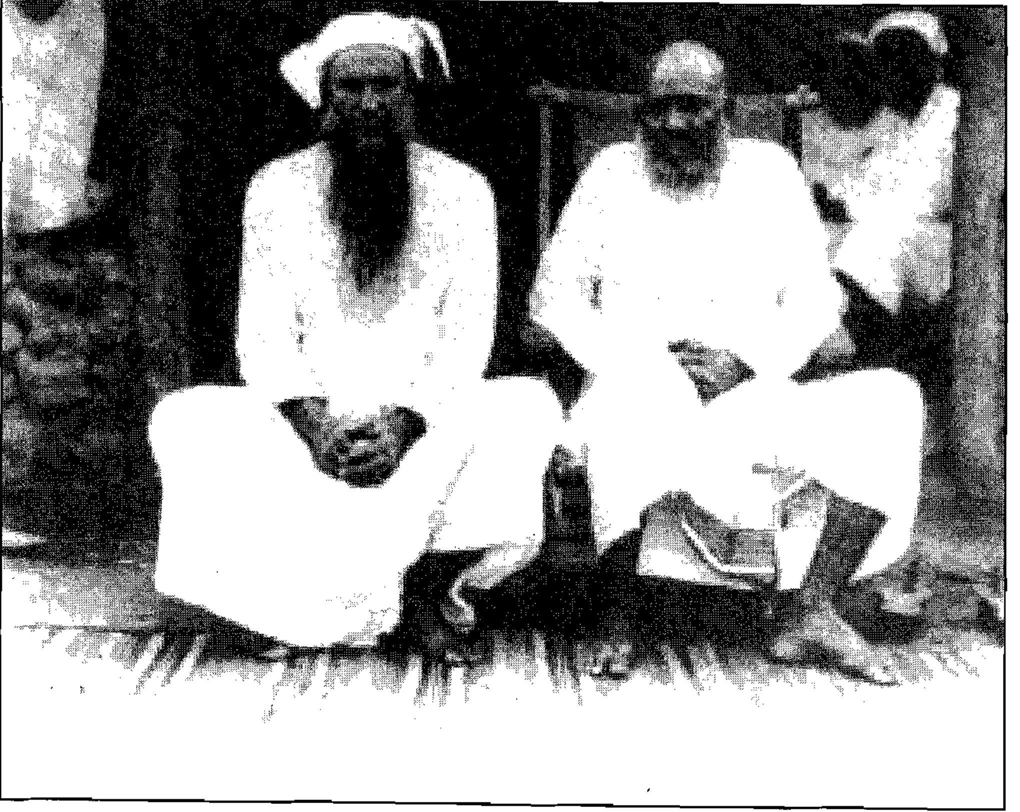
تيبو تيب في أبهة رسمية

المصدر: KONINKLIJK MUSEUM VOOR MIDDEN AFRIK



رسمة بيد الرسام ليبون ايفاني على حسب وصف ال انيولو وجي بيكير

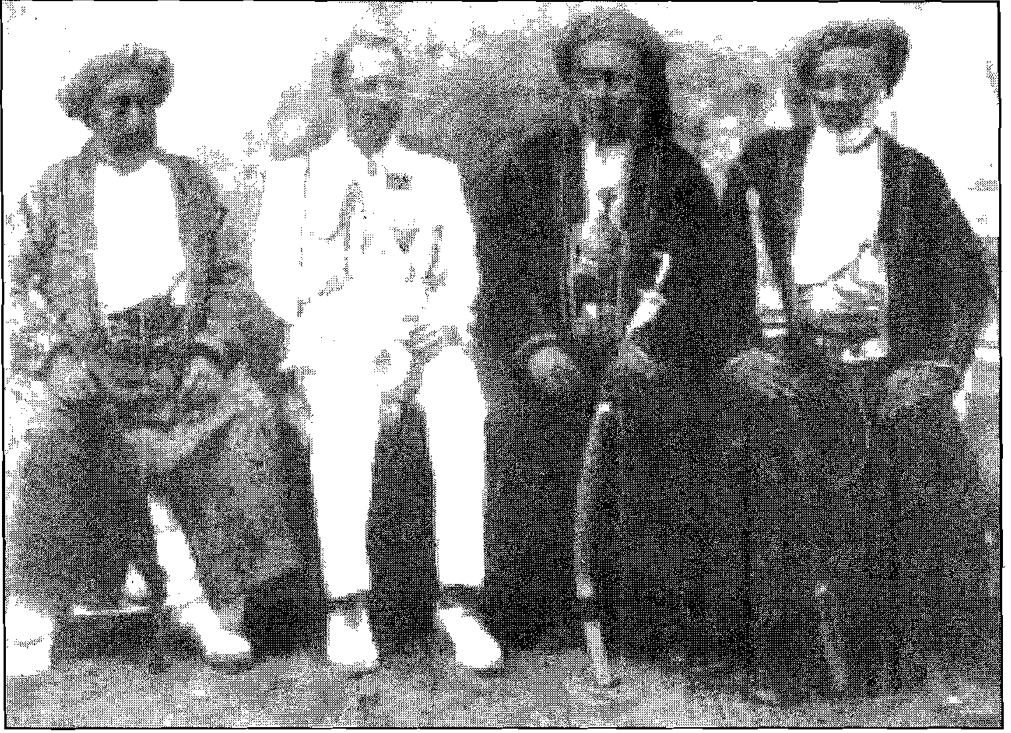
المصدر: KONINKLIJK MUSEUM VOOR MIDDEN AFRIK



تيبو تيب (على يمين الصورة) وبوانا نزيجي في شلالات ستانلي

(تصوير ف. ديميوز)

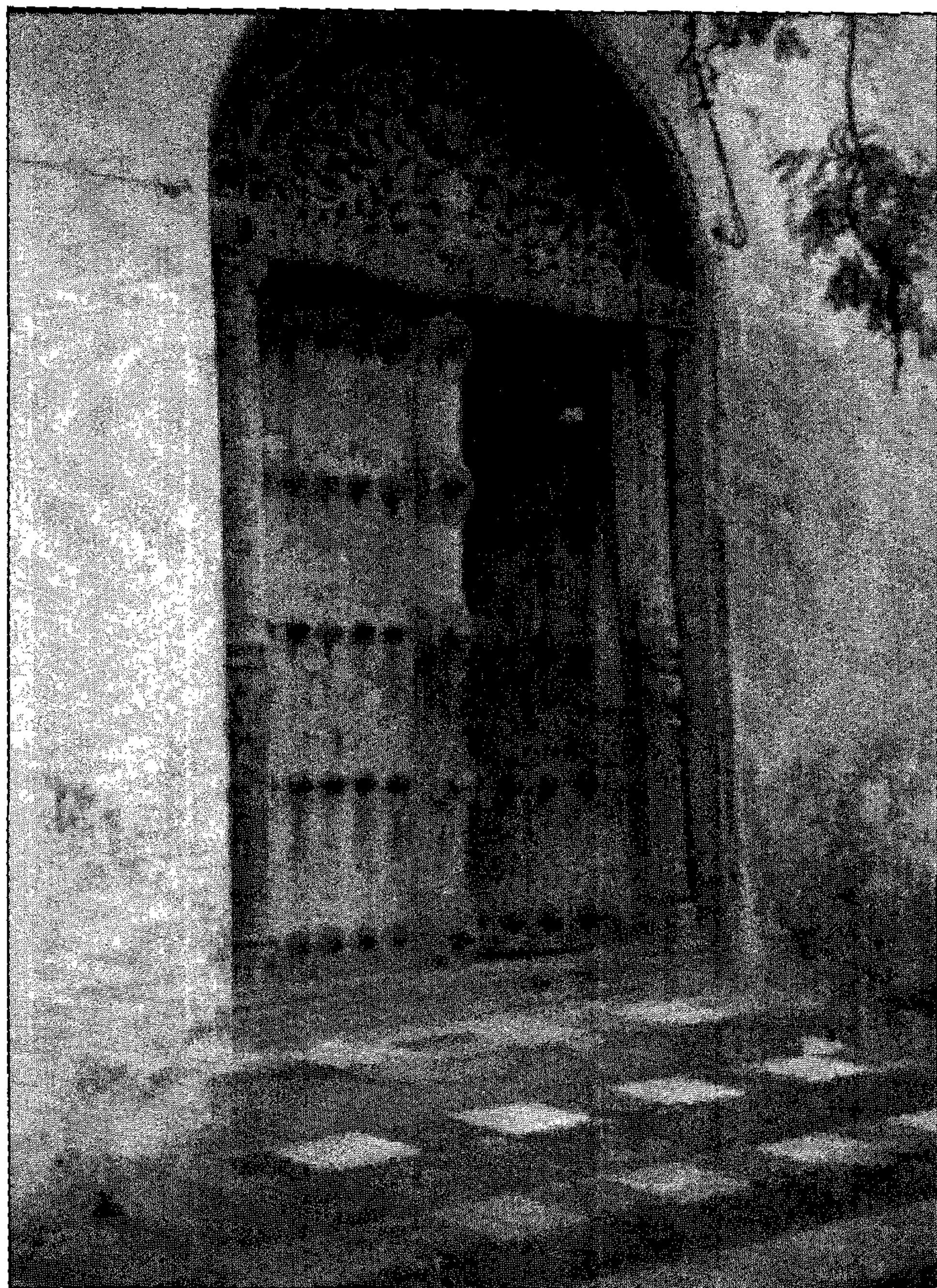
المصدر: KONINKLIJK MUSEUM VOOR MIDDEN AFRIK



من اليمين تيبو تيب، شخصية غير معروفة لدينا، القنصل الأمريكي، التاجر الهندي الأصل تاريا توبان

المصدر: محمد المرجبي





المصادر والمراجع[1]

أولاً العربية:

- بدوي، عبدة (د ت) شخصيات أفريقية (القاهرة).
- البعلبكي، منير (١٩٩٤) المورد (دار العلم للملايين: بيروت).
- اللمكي، ناصر بن سليمان، حميد بن محمد المرجبي فاتح الكونغو (مجلة الهلال، يوليو ١٩٠٦)، ص ٥٧١ ـ ٥٨٠.
- المغيري، سعيد بن علي (١٩٧٩) جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار، (مطبعة عيسى البابي الحلبي: القاهرة).
- مسعود، محمد (١٣٢٥) تقويم المؤيد (القاهرة).
- رزق، يواقيم رزق، حميد بن محمد المرجبي (تيبو تيب) والوجود العربي في الكونغو (رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، مركز البحوث والدراسات الأفريقية، ١٩٧٥).
- مجاهد زكي محمد (١٩٥٠) الأعلام الشرقية في المائة الرابعة عشرة الهجرية، ج ٢، (القاهرة).
- الموسوعة العربية العالمية، ج ٢٥، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع (الرياض: ١٩٩٦).

(١) أثبتنا هنا مراجع لم نستفد منها مباشرة في هذا العمل وإنما ذكرناها تسهيلاً لباحثين قادمين.

ثانياً الأجنبية:

- Al Barwani, Ali Muhsin (1997) Conflicts and Harmony in Zanzibar (Memoirs).
- Brode, H (2000) Tippu Tip: The Story of His Career in Zanzibar (The Gallery Publications: Zanzibar). (1960).
- Bennett, N (1986) Arab Versus European: Diplomacy and War in Nineteenth - Century East Central Africa (African Publishing Company a division of Holmes & Meier: New York London).
- Elton, J (1879) Travels and Researches Among the Lakes and the Mountains of Eastern and Central Africa (London).
- Haj, Maulid (2004) A Jail Tale: the autobiography of an Omani in 1960's Tanzania (Al Roya Publishing: Muscat).
- Hindy, S (1897) The Fall of the Congo Arabs (London).
- Moorhead, A, 1960, The White Nile (Penguin Books and Hamish Hamilton: New York).
- Rechenbach, C (1967) Swahili - English Dictionary (The Catholic University of America Press).
- Soghayroun, I (1992) Islam, Christian and the Colonial Administration in East Africa (Muscat).
- Stanley, H (1885) The Congo and the Founding of its Free State.
- Stanley, H (1972) How I found Livingstone (London).
- Jameson, J (1890) The Story of Emin Pasha Relief Expedition (London).

الفهرس

هذا الكتاب

تقدم هذه السيرة شخصية طموحة حفرت طريقها بأظافرها وبدأت من مرحلة الصفر وعاشت حياة مليئة بالأحداث ومليئة بتحدي المجهول. هي أسطورة لإنسان عادي من أسرة ضعيفة غاب معيلها وتكالبت عليها الظروف. غير أن تيبو تيب يتحدى كل ذلك وينجح بشكل كبير لدرجة تجعله قادراً على التعامل وأحياناً التفاوض مع حكومات عربية وغربية التي تقدر حجم النفوذ الذي يتمتع به هذا الرجل في داخل البر الأفريقي.

